

أوراق شاب عاش منذ ألف عام

جمال الغيطاني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

أوراق شاب عاش

منذ ألف عام

أوراق شاب عاش منذ ألف عام

جمال الغيطاني



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

اوراق شاب عاش
منذ الف عام
جمال الغيطاني

الغلاف

الإشراف الفنى:

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

مقدمة

« عثر علماؤنا على هذه الأوراق أثناء عمليات تنقيب فى المنطقة الواقعة شمال مصنع المرئيات رقم ستين ، حيث قامت منذ ألف عام مدينة كبيرة يحتمل أن يكون اسمها « المنيا » أو « أسيوط » ، وتخص تلك الأوراق أحد سكان هذه المدينة . وقد كتبها أثناء الحرب التى نشبت فى تلك الأحقاب البعيدة بين أجدادنا على ضفاف النيل وبين دويلة صغيرة لم يصلنا غير معلومات ضئيلة عنها ، وكانت تسمى إسرائيل . لكنه من المعروف أن هذه الدويلة قد اختفت تماماً بعد ذلك وضاعت أخبارها نهائياً ، ونرى هنا مشاعر أحد أجدادنا فى هذا العصر البعيد حيث يبدو أن وطنه كان يتعرض لبعض الأخطار ، كما نلمس أيضاً إحساسات أبناء هذه الفترة المليئة بالتناقض قبل انتصار الاشتراكية فى كوكب الأرض كله ، كذلك أورد هذا الشاب مختارات من قراءاته ومن معالم العصر ، وقدمنا هذه الأوراق كما هى ، فيما عدا توضيحات بسيطة راعينا أن نكون فى أضيق الحدود ، إننا لا نعرف تفصيلات كثيرة عن كاتب هذه الأوراق ، لكننا لا نملك إلا الإحساس بالاحترام لأحد المكافحين الأوائل المجهولين لنا والذين مهدوا لحياتنا هذه »

كانت مدينتى مظلمة تماماً ، المبانى الكبيرة أشباح هائلة لا تفصح عن تفاصيلها ، كان الصمت مستكناً فى الزوايا والأركان لا انفجارات ، لا صوت مدافع ، عدت أصغى إلى الراديو ، الموسيقى العسكرية ، صمت مضن مرهق منذ الظهيرة ، لمح أحد الزملاء شعلة ضوء فى نافذة علوية ، عندئذ صحنا كلنا ... طفوا النور .. طفوا النور .. هبت موجات متتابعة من الهواء ، امام بيت قديم جلس رجل عجوز أصر على السير معنا كان يؤكد أنه قد رأى أربع طائرات . لم يعرف بالضبط إن كانوا من طائراتنا أو طائراتهم ، انقضوا ثم ارتفعوا حتى شك فى أنه هو الهدف المقصود . ابتسمت فى الظلام ، عدت أصغى إلى الراديو ، صاحت امرأة تأمر طفلها بالسكوت ، سقط وعاء نحاسى فى طابق علوى ، عامت رائحة غامضة فى الفراغ ، قال المذيع ..

.. وخاضت قواتنا معارك رهيبة فوق الأرض المصرية ..

صاح شاب لم أره .. ما معنى ذلك ، أدرت المؤشر ، لكن الصمت حاد قاس ، عاد المذيع يكرر البيان ، إحساس غامض ، بأن ثمة أشياء هائلة تحدث ، صحيح المسافة بعيدة ، أين سيناء من مدينتنا ؟ (كانت المسافة من منطقة سيناء التى كانت فى هذا الوقت صحراء تماماً إلى أقصى نقطة فى الوادى تعتبر بعيدة بمقاييس هذا العصر) لكنى شعرت بالخطر ، ثم ما الذى يحدث لو انهار سد أسوان ؟؟

ستغرق المياه أرضنا بعد ساعات ، عدت أصغى إلى الأصوات الخافتة .

– ليس من المستبعد أن يضربونا هنا ..

– إنهم كلاب عمى لا يفرقون بين شىء وشىء ..

إقترب منى أحد الجيران .. أشار إلى الراديو ..

– هذا يعنى أنهم فوق أرضنا . !!

حلقت فى العتمة اللزجة الكثيفة « خرس الراديو » لم يعد قادراً على إعطائى أى شىء ، ترى ما الذى يحدث ؟ ما الذى يجرى ؟ أريد أن أعرف ، فليحدث ما يبدد هذا الغموض الذى يخنقنى ..

لكن الصمت كان قاسياً ، لمحنا شعلة ضوء ، فعدنا نصيح .. طفوا النور .. طفوا النور ..

« صفحة من المذكرات »

• • •

بلادى بلادى بلادى
لك حبى وفؤادى
هنا القاهرة ...
لحظة صمت ...
موسيقى عسكرية ..
مصر التى فى خاطرى وفى دمى ...
أحبها من كل روحى ودمى ...
« الإذاعة فى صباح باكر من الأيام الأولى ليونيه »

• • •

اقشعر جسمى ، أغنية كئيبة .. ومادية تثير فى نفسى انقباضاً مؤلماً ، كل شىء فى خطر ، خرجت بسرعة من حجرتى الصغيرة إلى شوارع مدينتى الضيقة ، كان الصباح صافياً جداً ، السماء براقة جداً لكنى أحسست بالسماء حمراء كالدم ، مخنوقة ، شىء ما يرثى .. ما هو ؟ لا أدرى . ربما النهر الكبير ، ربما الناس ، الأطفال الصغار فى زحامهم حول بائع حلوى أمام مدرسة ، المسافرون ـ لحظة الوداع ، ربما همسات الفتيات فى المساء ، ربما الأشجار وهسيس الحشرات بين أغصانها ، هذا الجبل ، تلك الكتب . قال الراديو قواتنا تقاتل فى الخط الثانى ، طحننى السؤال كحجرى الرحاية ، أين مواقع الخط ؟ لم تسعفنى الخرائط التى لا معالم بها ، شرب مدير المكتب قهوته ، تحدث عن روميل .. (قائد نازى عاش فى النصف الأول من القرن العشرين) . وتكلم عن « الحرب العالمية والعلمين » وتساءل أخيراً عما إذا

كانت دور السينما تغلق فى المساء أم تفتح أبوابها ؟ .. ثم قال إنه من الممكن للسينما أن تعمل فى أيام الغارات إذا ما أحكم إغلاق المبنى ، ومنع تسرب الضوء ، قمت واقفاً وخرجت ، فى العصر لم أستطع النوم ، كنت مرهقاً .. منهكاً .. قال ساكن الطابق العلوى ..

- ضربونا الأمريكان ..

ردت عليه امرأته البدينة ..

- صحيح بينزلوا البلاد ويفتحوا بطون الستات ؟

صاح الرجل ..

- يا وليه احنا رحنا فين .. والله يوم ما تحصل تموت أحسن ؟ تصايح أطفال فى الحارة ، نظرت إلى الكتب المكومة فوق أرض الغرفة ، زحف صرصار فوق الجدار ولم أحرك أصبعاً ، ترى ماذا يفعل أصحابى فى القاهرة ؟ الغارات لا تهدأ فوقهم ، لابد أن حالهم أحسن منى ، كان من المفروض أن أنام حتى أستطيع السهر فى نوبة المقاومة ، جفونى ثقيلة وذرات الرمل تملأ عينى لكم أنا فى حاجة إلى النوم ، النوم حتى أسهر ، حتى أرى شعلات النور التى تثقب ظلام المدينة ، لكننى قمت بسرعة ، خرجت إلى الطريق ..

« صفحة من المذكرات »

إنى أشعر ببرودة أشد من برودة الماء ..
إنى أشعر بحرارة أشد من حرارة النار ..
ويغرق جسمى فى العرق بينما أهتز من شدة البرد ..
هناك غشاوة على عينى ولا أستطيع الرؤية ..

« شكوى الأله رع إلى إيزيس »

• • •

تسلل اللون الرمادى القاتم فى خبث إلى الفراغ ، غرقت البيوت القديمة فى صمت ما بعد الغروب ، أسرع المارة إلى بيوتهم ، حامت فى الشارع رائحة شىء يحترق فى مكان ما ، عند ناصية حارة ضيقة رأيت زحاماً ، وقفت أسمع المذيع ... همس أحد الواقفين .

- انسحبت قواتنا إلى الضفة الغربية .

قديماً نصحنى صديق أن أتمضمض بالشبة لأزيل آلام أسنانى كان الطعم مراً قاسياً مثيراً للقىء ، لكننى مضغته فى بطء ، جف حلقى ، لمع نجم كبير فى الطرف القصى للسماء ، بدأ الجبل خطاً باهتاً على الناحية الأخرى ، وكان النهر يمضى هادئاً بلا ضجيج .

« صفحة من المذكرات »

• • •

وفى هذه السنة نقص ماء النيل ، فشحت الغلال . ونزل الوباء فى الناس ، فكادت مصر أن تخلو من سكانها . وكان النيل يفيض على الأرض فلا تجد من يزرعها .

« تاريخ قديم »

أنا الملك سوريد ابن الملك اليودشير ، بنيت هذه الأهرام فى ستين عاما ، فليهدمها من يشاء فى ستمائة سنة علماً بأن الهدم أيسر من البناء .

« التاريخ الأسطورى »

• • •

« وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم » .

« قرآن كريم »

• • •

كنت أعبر الميدان فى البلدة ، كان خالياً غارقاً فى عصر أصفر كئيب .. زحفت عربة نقل كبيرة . فجأة .. ! لا ادرى من أين جاء كل هذا العدد من الناس ، أفندية أسرعوا إلى العربة ، امتدت الأيدى إلى حمولة البطيخ .. خبطت الأكف على الثمار الخضراء ، تزايد الصياح ، حلقت البيوت الواطئة فى صمت ، رفعت عينى إلى دار السينما ..

نجاة الصغيرة تركب دراجة ، يقودها الشاب خفيف الدم حسن يوسف .. وقد أحاطها بذراعيه .. فيلم شاطىء المرح .. أسبوع ثالث بناء على طلب الجماهير ...

عاودنى طعم الشبة المر ، الهواء ساخن كالماء الدسم ، العرق مثير ، لزج ، فى المساء تمنيت أن ينزل المطر ، ينزل ، ينزل ، ثم ينزل . أكلنى الحنين .. البارحة الرطبة وأقسمت فى سرى لو نزل المطر فسأقف فى الميدان الكبير أتلقاه ، لن أجرى أبداً ، لكن هيهات أن يحدث هذا فى أيام الصيف المجدبة تلك ، كانت السماء صافية تماماً ، ورأيت مدينتى الصغيرة علبة ضيقة ملقاة بعيداً عن الدنيا ، وتذكرت أرض واق الواق ، وجبال قاف ، والبحارة المسافرين فى بحار بلا شطآن ، والطيور الصغيرة الضعيفة المهاجرة التى لا تجد قلباً حنوناً تأوى إليه ، عندما انقضى النصف الأول ، من الليل دقت الساعة الكبيرة فى بهو المحطة ، حلقت إلى الطريق الممتد فى جوف الليل .. من يدرى .. ربما سقط المطر فى المدينة الكبيرة ..

« صفحة من المذكرات »

* * *

اللهم بقدرتك أجر نيلنا ، وبلغ به المنافع ، اللهم أنبت لنا الزرع ، وادر لنا الضرع ، اللهم لا تؤاخذنا بما جنته أيدينا ، اللهم دعوناك كما أمرتنا ، فاستجب لنا كما وعدتنا .

« من خطبة استسقاء »

* * *

كان زحام الأوتوبيس شديداً ، نظرت امرأة إلى رجل يحاول الالتصاق بها فى حذر . فى أقصى الميدان كانت مئذنة الحسين تنتصب رشيقة تطعن الفراغ ، الرجال يدخلون الجامع فى خشوع منكسى الرؤس ، فوق الرصيف وقف رجل بدين يصيح ملوحاً بيديه ..

– عندنا الدواء الشافى من جميع الأوجاع ، قرش صاغ واحد يا سلام .. عندنا ..

بجوار باب الفندق جلس جزار بدين ، قصير جداً ، قال لجاره الحلاق ..

– بنينا كل شىء لكن ينقصنا تربية النشء . اى والله أهم شىء تبناه تربية النشء .

من النافذة رأيت فتاة تقف فى الشرفة المقابلة ، حلقت فى لحظة . مسحت شعرها بيدها . ضحكت ، تثنى جسمها وأشارت إلى الطريق . عدت أدور بعينى فى الحجرة وطعم الشبة المر يدور فى فمى ، من أسفل صاح بائع صحف ..

– الحق يا جدع .. حرقوا أمريكا فى فيتنام يا جدع ..

تمددت فوق السرير .. راح المساء يهبط رمادياً مقبضاً ، لم أنم ، ثانى ليلة فى المدينة الكبيرة .. قلت للمسئول الكبير ..

استطيع عمل اى شىء تطلبونه سواء فى بلدك أو هنا . . . هز رأسه وقال :

— كل شىء وله وقت . . عندما نحتاجك سنبعث إليك . .

وعندما عدت إلى الطريق تذكرت بلدى والطريق إليها ، خفق قلبى ، لم أع من قبل معنى وجود كلاب فوق أرض بلادى ، شىء لزج حقير أهان رجولتى ، رجال أجلاف اقتحموا بيتى واغتصبوا أختى أمام عينى ، أسمعها تتأوه ولا أتحرك ، تغوص أسنانى فى الأرض الصلبة ، لكن بلا فائدة (وهذا يؤكد لنا أن أجدادنا قد تعرضوا لمتاعب مؤقتة مع هذه الدويلة الصغيرة التى لم تعمر كثيراً) . نظرت إلى الخارج . الليل ينزل فوق المدينة هادئاً بلا ضجيج ، إن لم أصل إلى شىء الليلة فسأرجع إلى بلدى ، إلى العلبة الضيقة ، الثرثرة على المقاهى ، الحديث عن النساء ، كلام زميلى عن المسبك ، التخديعة ، المسلوق .

إذا قلت لن أرجع فإلى أين ؟؟

نظرت فى الساعة ، بعد قليل أنزل ، آخر الليالى فى المدينة ثم . . لا أدرى . !

« صفحة من المذكرات »

* * *

يجب أن نجد حلاً للشبان الذين لا زالوا يتسكعون على النواصى . افتحوا لهم أبواب معسكرات المقاومة الشعبية . . . (صورة تمثل شباناً يضعون أيديهم فى جيوبهم . ويجلسون على السور الحديدى أمام الأمريكيين ؟) .

هجوم جرىء لثوار فيتنام . . مصرع ألف جندى أمريكى .

على أفندى ابراهيم يشكر ضابط وجنود نقطة الناحية لمساعدتهم إياه فى ضبط جاموسته المسروقة . . فلهم الشكر .

مصرع جين مانسفيلد صاحبة أضخم صدر عرفته السينما العالمية ، انفصل رأسها عن جسمها !! . .

الأمم المتحدة تفشل فى إتخاذ قرار .
أين تقضى السهرة هذا المساء ؟
كفرويد أقوى مبيد . . .

(من صحف الأيام الأخيرة من يونيو)

* * *

أحمر . . أزرق . . خطان لونها أصفر . اللافتة المقابلة تضىء وتنطفىء . . المقهى مزدحم بالناس . . قال صديقى وهو يرفع نظارته التى انزلقت على أنفه . .

— لابد من الالتحام بالناس والنزول إليهم . . والتحدث معهم ومعايشتهم .

أكل قطعة خيار صغيرة مملحة ، شرب من كوب البيرة جرعة .
— هكذا يكون العمل وإلا فلا . . ألست معى . .
صمت برهة . . سألنى فجأة !

— إلا قل لى . أخبار الثورة الثقافية اختفت هذه الأيام . . ألا تعرف ما وصلت إليه ؟

هززت رأسى . . قمت واقفاً . . أحسست بطنين فى أذنى . أحد الزنابير التى تطن فوق حقول صعيدنا قد حاذى رأسى . . عدت إلى الطريق . . الشوارع حبلى بفتيات جميلات ، وشبان متأنقين . . الفساتين قصيرة جداً والأرداف تترجرج تحت القماش . أمام محل بيع العصير وقفت عربات طويلة يشرب أصحابها أكواب المانجو والفراولة . . تزايد ظمأى . . لكننى مضيت . . هل أبعد ؟ أم أظل ماشياً بلا نهاية ؟ ! أم أذهب إلى الفندق وأنام ثم لا أصحو إلا بعد ألف عام . . أعود إلى الشوارع طويل اللحية . . قذر

الأظافر .. زائغ العينين .. تحملق العيون فى مستنكرة .. تمتد الأيدى تفحصنى .. البنايات غريبة لا تتسع لى . الطعام ليس كما تعودته . حتى الماء أجد فيه طعم الشبة .. المر .. أشعر بوحدة .. بخوف .. أتمنى لو تقلصت .. لو تلاشيت فأعود من حيث جئت .

أشعلت سيجارة .. نفذت رائحة الدخان إلى أنفى .. كانت الأضواء تختلط ببعضها فى نهاية الطريق ، تمنيت فى هذه اللحظة لو أن معى صديقة ، حلوة ، رقيقة ، صوتها هادىء عميق ، تومىء بذقن صغيرة ، حلو ، يبدو فى عينيها الحلوتين بريق يبعث الدفء فى نفسى .. أتكلم وتتكلم وأسمع .. أتكلم وتصغى ، أخذت نفساً عميقاً .. وبدت لى حجرة الفندق بسريرها الحديدى الأسود الضخم مقبرة هائلة ضخمة يمرح فيها دراكولا ، يحملق إلى الباب فى إنتظارى .. يلمع نابيه ، يقطر منهما الدم .. لمعت أضواء السينما ، تمايل المطرب على شاشة التلفزيون .. لم أسمع ما قاله .. مشيت متمهلا .. قالت امرأة لرجل عجوز .. « هو فاكر الفلوس اللى بيسيبها لى تكفى .. والله باستلف على العشرة صاغ عشرة تانيين علشان أكفى العيال عيش حاف بس .. قل له ييجى أنا تعبت !! الحمل تقيل عليه ومش قادرة أشيله لوحدى .. » .

« صفحة من مذكرات »

● ● ●

لو مت ع السرير ابقوا احرقوا الجسد .
ونطوروا رمادى ع البيوت .
شوية لبيوت البلد ..
وشوية ترموهم على (تانيس) .
وشوية حطوهم فى إيد ولد .
ولد أكون بسته ولا اعرفوش .

(شعر عامى .. حجاب)

قلت لصديقى الذى التقيت به قرب الفندق ..
ـ وهكذا أنا حائر .. لا أعرف هل أرجع أم أبقى .. !
حملق فى .. أسند كوب العصير الفارغ إلى ترابيزة الرخام
ـ إسمع .. مازن سافر إلى الاسماعيلية ،
ـ من مازن ؟
ـ أى واحد .. أنا نويت .. الجو هناك سنجد فيه ما نبحث عنه ..

بللت شفتى بلسانى .. ووضعت يدى على كتف صاحبى ، عيناه تلمعان لمعاناً غريباً ، سألتقى بكثيرين مثله .. بالتأكيد ستجىء ليالى مشحونة بما أنا فى حاجة إليه .. قلت ..
ـ نلتقى غداً ..
ـ هات معك بطانية وزمزمية ماء .
ـ إلى اللقاء ..

لن أعود إلى الحجرة الضيقة .. إلى الفتاة التى تلوح بيدها . سأدور فى الطرقات حتى يسحب الليل نفسه . وتتساقط ذرات النهار فى الفراغ . ثم أرحل .

المقتبس من عودة ابن إياس إلى زماننا

ارتعبت فالدنيا غير الدنيا والمدينة ليست بالمدينة ، حتى الناس خلاف الناس . لا أهل لقيتهم ، لا كبير او صغير . . عظيم أو حقير من أيامى التى اجهل مصيرها ولم أعرف مايفصلنى عنها شهور أو سنين . وعندما بعث أصحاب الرقيم من نومهم ليتساءلوا فيما بينهم ، قال قائل منهم . .

كم لبثتم ؟

قالوا لبثنا يوماً او بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم .

لكننى لم أعرف كم مضى على ولم أعرف لم جئت ؟ غير أنى قلت لو انسقت وراء الدهشة والغربة ، لو تملكت منى الرهبة وافترسنى الخوف ، لضعت فى هذا الزمان الذى تحرك وطار فيه الجماد ، فلأرقب وأستمع ما يدور حولى من عجائب وغرائب . والله لو رآها واحد من أهل زمانى لنشف جلده ومات رعبا وراح على نفسه .

• • •

المقتبس الأول من اليوم الأول

تعاظم الزحام فى الطريق حتى خلته يوم الحشر . . كدت أتعثر فى مشيتى . وصدمنى الكثيرون حتى أن عمامتى كادت أن تنخلع . وكان الليل يرحل فما زال الليل يلى النهار . وكانت الأصوات عالية . رجال يزعقون وصبية يتصايحون ونساء يتهامسن ويتغامزن . . وتمنيت لو أقعد فى مكان بعيد أرقب كل هذا ، غير أنى لا أعرف الطريق ، وكنت تعباً فقد بلغت فى زمانى الأول سبعا وسبعين سنة ، لكننى لم استطع إلا المشى ، إذ أن المارة يتدفقون كنهر النيل فى عام تعاظم فيه الفيضان واشتد ، فجأة جذبنى رجل من ذراعى فكدت أنكفىء على وجهى .

ـ لو تسمح . . امش فوق الرصيف .

ما الذى جرى للناس فجأة . . لم أعرف ما يحدث ، فى عرض الطريق وقف شباب ينظمون الرايح والجاى ، وقرأت فى الوجوه أن شيئاً عظيماً يقع ، وكان الليل قد نزل جامدا كالحديد ، خفض الأصوات فجأة فارتعب قلبى . تتبعت من بعيد أصواتاً مكتومة هائلة كأن السماء تقع فوق بعضها ، ارتجت البيوت رجاً مهولا ، كادت ضلوعى تنخلع من الخوف ، قال رجل .

الضرب جامد ناحية العباسية .

رد آخر . . أوقعنا لهم طائرتين .

لم أرهم غير أن ما قالاه أحسسته ، هناك خطر وكانت الرجل قد خفت من الطريق ، فاستندت إلى جدار قديم ، وتمنيت لو ألقى امرأتى وعيالى ، لو بقى قائم كما هو .

انقطع الصوت فنزل هدوء كأنه السوق لحظة قطع رأس طفل صغيرة فوق باب زويلة . كأنه البلدة أيام توقف النيل عن الزيادة ، كأنه ، والله ، وجوه العوام المبتئسة لحظة طواف المنادى معلناً عن مكوس جديدة من قبل السلطان . فجأة . . فرقعت السماء وسمعت أصوات غريبة ، ضحك رجل وقال : ولا يهمك ، سأل شاب فى مكان قريب ، كله تمام ؟ واصغيت متعجبا وكأن الليل قد أوغل حتى آخر عظامى .

(منادى قلعة الجبل يقرع طبله ، يتوجه بالنداء إلى أهل المدينة أهالى القاهرة . .

سيخرج الملك المعظم سيف الدين قطز .

بعد أيام قليلة لمجاهدة الكفار .

ونصرة الدين . .

فجند التتار يهددون الديار . وهم خربوا بغداد وقتلوا خليفة المسلمين واستباحوا نساءها .

ومزقوا أبكارها ولاطوا بأطفالها .

جند التتار يهددون الأهل والديار .

ادعوا للملك العظيم سيف الدين بالنصرة على عدو الله وعدوكم .

* * *

يا أعراب البادية . يا نسل الصحابة والمجاهدين .

أوقفوا غاراتكم على قوافل السفر . تصالحوا فيما بينكم

أخرجوا يداً واحدة للجهاد .

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .

* * *

يا فتيان مرجوش وبولاق والربوع .

يا زينة أهل المدينة .

يا أشجع رجالها .

الجهاد . . الجهاد .

وما النصر إلا من عند الله .

* * *

المقتبس الثانى من يوم لا يعرف موقعه بالضبط من أيام العودة :

المفروض أن يكون النيل على أشده فى الزيادة ، فالجو حار والتراب يطلع من الأرض وينزل من السماء يملأ الفراغ . وعندما يتكاثف الزحام يصبح المشى والوقوف شيئاً لا يطاق ، سرت فى طريق هادىء حن إليه قلبى . ورحت أتفرج على البنايات المحيطة بى . فجأة سمعت حس رجل ورائى فالتفت . شاب يقارب عمرى وقت أن جاء السلطان قايتباى إلى الحكم . كنت يومئذ فى العشرين . أول العمر وفرحته . حاذانى فى مشيتى . . وجهه نحيل . . يتأبط كتباً . فى عينيه حزن كبير كما لو مات له قريب . . لم يرد على السلام . قال :

ـ إنها هنا .

ـ من ؟؟

ـ سعاد !

توقفنا تحت شجرة ضخمة لا مثيل لها فى هذا الطريق . كاد الرعب أن يتملكنى . استعذت بالله . حرت فى أمور هذا الزمان . يا بنى من أى عصر أنت ؟ ومن أى زمان حتى أستريح وأعرف بدايتى من منتهاى . ألا يكفى نطق الجماد وطيران الحديد . فأى سعاد هذه يا ولدى ؟

ـ إنها تعيش فى كل قطرة دم فى عروقى . من خلالها أرى الدنيا كلها بحلوها ومرها . لا أنام إلا على صورة وجهها . خضرة عينيها وما تمنحنى من أمان ، سعاد . . شعرها وهذه الوردة الصغيرة التى تتوسط مقدمة رأسها كأنها علامة تهدى المسافرين التائهين .

ـ أحبها حتى النخاع يا سيدى ومع ذلك لا ألقاها . . لا ألقاها . .

تخللت لحيتى بأصابعى . كنت أولى مبتعداً فعيناه تبرقان . . حتى خلته فقد العقل والصواب . أم أن هذا حب ذاك الزمان ؟

ـ كيف يا ولدى . . أليست امرأتك وأم عيالك ؟

ـ أطرق برأسه . الحزن الرقيق يشع من هيئته . . أشفقت عليه ؟ له ما يريحه . . لكنى لا أعرف ما يحسه . . لا أعرف . .

ـ إنها لا تعرف أنى أحبها . إن كيانى يذوب من أجلها .

صحت . . كيف ! رغبت فى سماع جوابه . . وكان الليل حولنا غامضاً كبحر الصين . كأنى أحسه لأول مرة ولم أر مثله فى العصر الثانى . . زعق شيء ما فى مكان بعيد .

ـ لن تعرف كما لا تعرف هى . كم أحبها ! كم عانيت من أجلها !

هذه الليالى الطويلة التى وقفت أمام نافذتها . ربما رأيت خيالها يلوح من وراء الستارة . . ربما امتدت تتناول شيئاً من فوق النافذة ، ربما أسعدتنى فخرجت تطل إلى الطريق . فى أكثر من ليلة جرجرنى عسكرى الداورية . وفى ليلة أخرى أمسكنى رجل ، كاد يضربنى ، فما الذى يجعل شاباً يقف تحت بيت . آه لو رأيتنى يوم أن قابلتها ، فى الصبح لم يكن فى الطريق سوانا . قلت لنفسى فلأكلمها ، فلأقل لها لفظاً واحداً ، ورحت أقترب منها وأقترب ، وعندما نظرت إليها إلتقت عيناى بعينيها . . ساعتها أثقلت لسانى أطنان الحديد ، قيدت حركاتى آلاف القيود ، توقفت لحظة كأنها تنتظر ودق قلبى وهبط حمل ثقيل فى داخلى ولم أقل كلمة فمضت ، وعندما اختفت ضربت وجهى بيدى ، لطمتنى بيوت الطريق فى السكة القاسية التى لا ترحم .

حرت ولم أدر ما أقول ، غير أنى خفت عليه ، تصلبت عروقه كأن المسكين لم يحدث شخصاً إلاى ، وددت لو أرى سعاداً هذه ، كنت لشدة كلامه وقوة حجته قد أحسست بوجودها ، لكن أين ؟

ـ إذهب واطلبها من أباها .

ـ لا أقدر . . فزواج هذه الأيام صعب يا سيدى ، كما أن أبيها رجل قاس لا يرحم ولو أخبره بما أشعر به لكتفنى وأثقل جسمى وألقانى فى النيل .

ـ منذ متى وأنت فى هذا العذاب ؟

— لا أعرف .. كانت سعاد تسكن شارعنا ، كانت صغيرة كزهرة السوسن ، نما حبى لها بتعقل وجسمى ، فجأة انتقلت عائلتها إلى شارع غير الشارع ، غير أن حبها علق فى قلبى ، رحت أراقبها فى كل مكان . لا أبوح لها ولا تحس بى . وها أنا أروح وأجىء فى الطريق الذى تسكن فى بيت من بيوته .. ربما رأيتها .

— والله لا أعرف ما أقوله يا ولدى .

إنطلق من قدامى وعندما درت لم ألمحه ، كان الطريق ساكناً وفيه وحشة . تابعت مشيق وأنا من الدهشة فى أمر عظيم ، أى شىء هذا الذى يحسه .

أهى قوة الجن الخفية ، يغذى حبه طوال السنين . لو أن ما يشعر به شىء ملموس لفهم وعرفت ، لو أننى رأيت سعاداً ، عاودنى الشعور بوجودها . كأنها تطل على من الليل كله بأشجاره وأطياره ونيله وحتى وطاويطه وخباياه . حرت فيها داخل عقلى فجأة وصرت مملوءاً بالدهشة والرهبة . تمنيت لو أجد هذا الشاب أمامى !.

« انتهى ذلك »

مقتبس من ليلة كان الزحام فيها شديداً والشتاء لا زال بعيداً .

منذ أن قابلت بوابة زويلة وكأنى وجدت جزءاً من نفسى . أو عضواً كان مفقوداً من لحمى وعظمى . لم أر رقاباً مقطوعة تتدلى منه أو أجساداً مخوزقة أو موسطة معلقة به ، أما المئذنتان فنفس الوقفة لم تتغير . صارت سلوى الرواح والمجىء كأنى أستظل به وأدثر روحى بأحجاره . كانت قاهرتى تبدأ من هنا وتنتهى عند بوابة النصر . زعق بائع جوافة ... ضرب مكارى حماره .. وأمام دكان صغير استقر صندوق صغير يطلق الأصوات وما ترسله آلات الطرب والغناء .. قلت لنفسى فلأسمع بعض ما نطق به الحديد . انبعثت أنغام حادة . اقترب البعض .. صوت رجل غليظ يقول إن العدو فتح نيرانه صباح اليوم ، هز الواقفون رءوسهم . ثم قال إن هجوماً جرى فى الجنوب وإن الفدائيين اقتحموا مدينة عدن . وأن الانجليز مات منهم ستون ، لم أعرف إلى

أى جنس ينتمى هؤلاء ، لكن إحساساً خفياً همس لى ، لابد أنهم ينتمون إلى الافرنج الذين عبثوا طويلا بشواطىء مصر زمن الأشرف قنصوه الغورى ، إلا أنه أرسل من التجار البحرية ما قطع دابرهم من البحر المالح كله ، سكت الصوت لحظة ، آذان الجميع مصغية ، كأنهم ينتظرون أمراً عظيماً أو شيئاً خفياً عنهم ، ثم قال إن شخصاً من زعماء الفرنج قابل زعيماً آخر وأصدر بياناً وقال إن مائة رجل من الفيتنامية هاجموا ألفاً من عسكر الأمريكان وأبادوهم عن آخرهم ، فقامت الطائرات وضربت البيوت بقنابل الحريق وقتلت أولاداً صغاراً ومات كثيرون .

وعجبت ! كيف لمائة أن يقتلوا ألفاً ، وزماننا . قالوا إن الكثرة غلبت الشجاعة . لكن الأمور انقلبت فى هذا العصر وتغير الحال ، وقف رجل يحمل فوق رأسه قفصاً كبيراً مليئاً بالخبز يسنده بيد واحدة ويركب عجلة تمشى فى توازن عجيب . وعاد الصندوق يكرر ما بدأ به . مشيت متمهلا وكان الليل ينزل أسود مختلطاً يسيل كالقار . آه لو أكلم واحداً وأحكى له همى . كيف وجدت نفسى فى عصر غير عصرى وزمان غير زمانى . أهذا لسوء بختى أو لحسن حظى ؟ لكننى لو قلت ذلك لرجل أو امرأة لما عرفت ما سيفعلونه ، وكان مستحيلا أن أعثر على واحد من أيامى ، لعنت ألف مرة الذين تمنوا أن يعيشوا ألف عام ، أحسست أننى تلاشيت فى أى لحظة ، كنت تعباً مرهقاً العطش يتملكنى ، مشيت بجوارى بنت مليئة تلبس لباساً قصيراً كشف عن ركبتيها ، وكانت تهز مؤخرتها هزاً محكماً ليناً ، لو أعود شاباً استعذت بالله ، ما الذى جرى للناس ، ربما هذا من علامات الساعة ، فجأة توقف أمامى رجل عجوز على رأسه طرطور أخضر ، مقوس الظهر حتى يكاد أن يلمس الأرض بوجهه يرفع سيفاً خشبياً ، صاح بصوت غليظ وريقه يسيل ..

— وحد الله يا رجل .

— لا إله إلا هو .

— أنا حامى الحسين الشهيد . هل تقصده بسوء أنا أعرفك .

ارتعبت .. اهتزت لحيتى .

مددت يدى باسطاً أصابعى .

— رحم الله سيد الشهداء وزينة شباب أهل الجنة .

همس ، إبتعد أنا أعرفك . مضى مهتزاً ولم أدرك قوله . وصلت إلى الشارع الكبير ، ملت إلى قهوة صغيرة أمامها عيال يزعقون وامرأة تجرى أمام رجل صارخة ، الراجل سابنى من غير مصروف يرضى مين ده يا مسلمين ، حولى كثيرون يحملقون إلى صورة امرأة .. تعودت هذه المخايلة ، وكانت المرأة الأولى حلوة بيضاء تسأل الثانية الرفيعة كالبرص .

— وصلتنا رسائل كثيرة يا مدام ، كلها تلاحظ أن فساتينك الأخيرة جديدة خالص .

رفعت حاجبيها وقالت . إنها تحرص على تغيير لباسها دائماً ، ثم قالت : ما رأيك فى تسريحة شعرى ، ألم تصلك ملاحظات عليها ؟

فقالت المرأة البيضاء : جنان .. جنان .. جنان ..

وتتابع الحديث وظهرت امرأة تتشقلب ورجل يفتح فمه ويغلقه ويبرق بعينيه ، وجاءت شابة ورجل سمين بكرش طويل وبعض الفلاحين وكانوا يقولون كلاما لا أفهمه ، غير أن البنت الشابة تفتح فمها وتغلقه قائلة : لازم تاخدوا حقوقكم .. لازم ، وكان الرجل البدين يزعق فيها — لا انتى بنتى ولا أعرفك — والفلاحون يصرخون والمركبات تطلق أصواتاً مزعجة وأشخاص يزعقون فى ركن القهوة — هيه زنقته فى اليك !! — والبنت تصر على أن يأخذوا حقوقهم . طاف رجل ينادى على بضاعته ، وأطلت امرأة تتمايل وتتثنى وتتخلع وترقص حاجبيها ، تغمض عينيها وتقول :

— الوله جه ونده عليه أنا قلت لأ — وعاد الشاب يطل علينا مكرراً حديثه عن النيران والفرنج والقتيل وآلمنى رأسى وضربنى مشاعل على ظهرى بسيفه حتى تكسر .. ومشيت فى إتجاه الجامع الأزهر حيث بعض راحتى . ورأيت المرأة .. الشاب النحيل . آه لو أجده .. يكلمنى عن سعاد . هل كلمها ؟ حتى الشارع الذى قابلته فيه ضللت الطريق إليه .. آه لو أرجع إلى زمنى هذه اللحظة .. إننى غريب حتى عظامى .. تقطع قلبى .. الحمدة حولى كهواء بلدة بها الوباء .. آه .. لو عدت فى زمان غير الزمان .

بدا الجامع الأزهر .. جلس أمامه فقيه أعمى يهز جسمه ويتأوه بصوت مبحوح نفذ إلى كليتى .

« فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها . قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً » .

« انتهى ذلك »

وهذه نبذة فيها عجائب وموعظة للمؤمنين:

.. وإذا تقوم القيامة . ويصطف الخلق صفوفاً . طول الصف مسيرة أربعين ألف سنة ولا يعرف الواقف أباه ولا أخاه ويرشح العرق ويأخذهم على قدر ذنوبهم . فمنهم من يأخذه إلى عنقه . ومنهم من يعوم فيه عوماً . ويطول الوقوف ويشتد الكرب . فيقولون انطلقوا بنا إلى آدم فنسأله أن يشفع فينا فيأتونه فيقول : مالى وللشفاعة .. ويذكر ذنبه .. فيأتون نوحاً فيقول كيف لى بالشفاعة وقد أهلك الله بدعوتى كل من فى الأرض . فيأتون إلى الخليل صلوات الله عليه ويذكرون له الحال فيقول مالى وللشفاعة وقد قتلت نفساً . فيجيئون إلى عيسى ابن البتول فيقول إن أدلكم على صاحب الشفاعة الكبرى انطلقوا إلى أبى القاسم بن عبد الله خاتم المرسلين . وإذ يشكون إليه حالهم يبكى النبى عليه الصلاة والسلام فيأتى العرش ويخر ساجداً فينادى يامحمد ليس هذا يوم السجود فسل تعط واشفع تشفع . فيقول يا رب مر بالعباد إلى الحساب بعد أن اشتد الكرب . فيجاب إلى ذلك وينادى . وعزتى وجلالى لا يجاوزنى اليوم ظلم ظالم ولا جور جائر . ولأقتص من الشاة القرناء إذا نطحت الشاة العجفاء ، ولأسألن العود لم خدش العود ولا يدخلن أحد النار أو الجنة وفى قلبه مظلمة . قال كعب الأحبار لو وجد من عمل مثل عمل سبعين نبياً لخشى فى ذلك اليوم .

لحظات شديدة الحزن تخللت أحد أيام العودة:

الزحام على أشده والخلائق تصطدم ببعضها ، البنات يتخلعن وينظرن نظراتهن الجانبية ، بائع بسبوسة يخبط حافة صينية بسكين صغيرة . رجال ألسنتهم تخرج من أفواههم . خرجوا فجأة من زقاق جانبي وهم ممسكون برجل حليق الشعر رفيع العنق جاحظ العينين . يضربونه على عنقه ويصرخون . الحرامي . . الحرامي . لمحت شاباً صغيراً يرمق الناس كأنه يبحث عن شيء ، إقترب مني .

تصور يا سيدنا الشيخ إن أبي خرج ولم يرجع حتى الآن ! تدافع الناس حولنا وكانت أيام زيادة النيل ولى والصيف يموت وعينا الشاب غير مستقرتين ، ترى أين راح أبوك يا بني ؟

ـ سافر إلى البلدة ليحضر نقوداً ، مرتبه لا يكفيه وإخوتي يعلمهم أبي أما أنا فأعمل لأساعده ، ومع ذلك فقروشنا قليلة ، دائماً نطالبه بنقود ، أمي تطالبه ، إخوتي يطالبونه ، ما أعطيه له لا يكفينا . أبي عجوز يا سيدنا الشيخ وطيب جداً ، لم يعرف السهر ، لم يأكل اللوز المقشر ، لو تدعو يا سيدنا سيعود إلينا ولو يوماً واحداً من هذه الأيام البعيدة ، عندما كنا صغاراً عندما يدخل علينا بطعام العشاء ، لو يرجع هذا اليوم الذي دفع فيه مصاريف أخي كان سعيداً . . . كاد يطير من الفرحة لأنه دفع المصاريف . لأنهم لم يطردوا أخي . .

كان ما قاله غامض . غير أني أحسست ما تمناه ، أنا لا أرغب في عودة يوم بل أتمنى عصري لأستريح ، أرى أخي يوسف الزردكاش وصبهري قرقماس المصارع . أنا لا أعرف كم من الوقت مضى علي . . أحياناً يخيل لي أنني قضيت ألف عام أسمع وأشم وأرى ومرة أغوص في عمق حقيقي بعيد ولا أعرف حقيقة حالي وأكاد أروح على نفسي . آه من بعد الزمن الذي لا أفهمه . .

ـ في الأيام الأخيرة كنا نتشاجر ، أخيراً يا سيدنا ـ ترك أبي البيت عدة مرات . عندما قابلته هائماً على وجهه فوق كوبري الجامعة . نظرت إلى عينيه العجوزتين . . دق قلبي مرتعباً . . أحسست به لكم هو عجوز بانحناء كتفيه . . . نام فوق الأرض لكنه لم يشأ ذلك لواحد منا وها نحن نجازيه . . تسبب في طرده . .

شق الطريق رجل ملون الوجه بالصبغة . . خلفه عيال يحملون خشبة عليها رسم رجل يحضن امرأة . . يوزع ورقاً صغيراً ، ـ هل تسمعني يا عم الشيخ ؟

قلت برثاء . . وأنا لا أعرف إن كان النهار يتقدم أم يرجع فأرى الشمس تطلع مرة ثانية ، بل انني أرى والدك أمامي ، قال لو ألف الدنيا ، أحكي للناس عن أبي ، لقد شعرت بمدى جرمي يا سيدي ، بأنني حقير بأنني صرصار عندما رأيت حالة أبي . . كان جائعاً لم يأكل ، أخذته وأكلت معه وعدنا إلى البيت . لكن لم يمر يومان حتى تشاجر مع أمي . . فسافر إلى بلدتنا في آخر الصعيد ، يبيع نخلات يملكها ، ويرجع ليسدد ما عليه من ديون .

نسمة هواء ، من أي خريف موبوء جئت ؟ ما هذه السنة التي لا أعرف لها فصلاً من شهر . . عينا الشاب تمتلء بدموع غزيرة كالنيل إذا تزاحم ماؤه وراء سد الخليج قبل فتحه . .

قال إنه سيغيب يومان لكن مضى شهر ولم يرجع .

ـ سافر يا بني .

ـ ربما وجدته لا أستطيع أن يفصلوني من شغلي .

كأنه يقول لغزاً ، تعاظم الزحام من حولنا حتى كاد أن يجرفنا ، قلت له أرسل مكتوباً ، فقال إنه لا يعرف أحدا من أهل البلدة ، فمنذ خروج أبيه منها ماشياً على قدميه ثلاثين عاماً ، وأبناؤه لا يعرفون واحدا منهم . . خبطت كفاً بكف ، وحرت فيما أقول !!

ـ ولن يعرف أحد أبداً ، آه يا أبى ، كنت أحبك ولم أشعر بك إلا بعد ضياعك . لو أراك لحظة واحدة ، وينتهى كل شىء موجود ، حياتنا لم تعطنا الفرصة لنقول الكلمة الحلوة لبعضنا ، سأقضى العمر باحثاً عنك .

طبطبت بيدى على كتفه ومر الناس من حولنا مسرعين وكان الوجود فيه صفرة وخنقة وكأن الصيف جاء بكل ثقله فى لحظة .

ـ ربما جاء ياولدى ،

قال ربما قتلوه ياسيدنا ، ربما وجدوا فى شخصه الفقير ما يسد دين دم على عائلته لعائلة أخرى .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، يتمنى لقاء أبيه ولا يلقاه ، لماذا لم تقل له ما ترغب ، هل ستجده ومن يصغى إليك فى هذا الزحام ، حملق إلى طويلا وانطلق فجأة درت برأسى فلم ألمحه ، والله لو استمر يوقف هؤلاء الناس واحداً بعد الآخر فلن يحس به أحد ، الزحام وتتابع الوجوه يأكل ما عظم وما صغر ، اشتدت الحيرة بى ، وانطلقت فى نفسى جمرة من حسرة أو أحكى لواحد من الناس ، علا التراب وترنحت النساء وطالعت فى العيون شيئاً كأنه موجه لى ، يقول فى صمت . . . إخرس !! ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً .

« إنتهى ذلك »

• • •

لحظة واحدة لم ير بعدها الشيخ العجوز الذى اعتاد التجول فى طرقات المدينة .

وأمام الناس كلهم استوقفتنى امرأة وكانت تمسك فى يدها قلماً ، فى يدها أوراق ، واستعذت بالله وسخطت عليها .

ـ كيف تكلمين رجلا لا تعرفينه .

ـ يهمنى معرفة رأيك . قل لى إسمك وسأكتب ما تجيبنى به . عيناى متعبتان . . البرد حاد كما أن صدرى يضيق وتنزل عليه كتمة . والله لا أعرف ما تريدون . الغيظ فى عينيها لكن الضيق والحيرة يثقلان نفسى ، ترى إلى أى جيل من النساء تنتمين ، أحقيقى أنك من سلالة حواء . . وفى أى الأعوام نحن ؟

أليس لك رأى فى رجوع الكرة أو عدم رجوعها ؟

زمت فمها ، ثبتت نظراتها على ، حملق فينا شاب هز رأسه ثم مضى . . المجذوب حامى سيد الشهداء يمشى منحنياً رافعاً سيفه ، فجأة انفرجت أساريرها :

ـ آه . . أنت ضد الكرة لأنك شيخ . . يهمنى أكثر معرفة رأيك . . ما اسمك ؟

قلت متمهلا . . والبرد ينفذ إلى عظامى ، حتى الشتاء ليس بالشتاء .

ـ محمد أحمد بن اياس . .

تحرك قلمها فوق الورقة . . نظرت إلى بدهشة .

ـ ألم تسمع عن الأهل ؟

ـ لا أعرف شيئاً عن هذا ! ؟

سنة ربما خمسمائة عام . . حملقت فى . . قلت لا تتعجبى . . فأنا لا أعرف ما تقولينه ، ضيقت عينيها وقالت : ما اسمك . ؟ أعدت عليها فتقوس حاجباها .

ـ إننى أعرفك ؟

وكان الليل قد رمى نفسه حولنا . . تغير لون وجهها ، كأنها غير التى كانت تقف أمامى ، وكان لسانى ثقيلاً ورأسى مدفون ، كأنهم يحرقوننى على شموع ضعيفة .

سألتنى :

ـ ما الذى أتى بك إلينا ؟

قلت : لا أعرف وقلت لها أهكذا توقفين الرجال وتسألينهم عما يفهمونه ولا يفهمونه . . قالت : هذا عيشى . عادة تسألنى : لم جئت ؟ غير أننى لم أرد . . وتابعت مسيرى . حنين فى نفسى إليها غير أن ابتعدت . ارتعشت أسنانى وكان الطريق قد نزلت عليه خدة وظلمة ، تلاشى كل أثر لصوت الصناديق . ومنظر المركبات المندفعة لتدهسنى . تمنيت الا أرجع . أن أظل أبتعد . لكن نفسى اشتاقت إلى الناس . لكن مع من أتكلم . . ! كيف أفهم أمورهم ! إلى أى العصور والأجيال ينتمون ، نظرت ورائى كأننى أغوص فى بئر القلعة السحيق ، ومن خلال الظلام خيل لى أننى سمعت صوتاً له صدى عميق ، وتذكرت الفقيه الأعمى العجوز الجالس فوق الرصيف . وكان يتلو بلا ملل : « هذا فراق بينى وبينك . . هذا فرق بينى وبينك » وكنت من التعب فى حال فأغمضت عينى .

أيام الرعب

الاسم بالكامل : عتريس فياض سلامه .
تاريخ الميلاد : ١٩٤٥/٥/٩ .
الديانة : مسلم .
الوظيفة : رسام بالمؤسسة العامة .
محل الإقامة : الجمالية ، كفر الطاعين .
رقم البطاقة : ٨١٦٦ .
فصيلة الدم :
تجددت هذه البطاقة فى يوم ٦٨/١١/١٨ .

● ● ●

. . . حارة الوطاويط ، البلاط المضلع ، الجدران الرمادية المتنفخة بالرطوبة ، إمرأة عجوز ترمش بعينيها . . بنت تمشى مهملة تحمل حقيبتها المثقلة بالكتب المدرسية . . إنحناءة خفيفة ، عيناها جيلتان . . قشر قصب ملقى عند زاوية الحارة .

إلتفت وراءه بسرعة ..
المنحنى الضيق خال .. لا أحد ..

صوت تلاميذ صغار من داخل المدرسة ، يقرأون فى صوت واحد .

رجل ..
صوت رفيع لطالب صغير ...
امرأة ..
مصلحة الدمغة والموازين ...

بائعة الفجل أمام دكان عم محمود السماك ، عند باب الحارة أبطأت خطواته .. جامع سيدى مرزوق مغلق .. لن ينظر وراءه قضبان نافذة الضريح حديدية سمراء باردة كالهواء المحيط به .. أغمض عينيه .. بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين ...

صبى صغير يدحرج طوقاً حديدياً ، بائع كرنب ، رجل يرتدى جلباباً صوفياً قديماً ، فتاة سمراء تعبر الطريق على مهل ، لم تتوقف عيناه عند ردفيها ، عض شفتيه .

منزل رقم ... إنتخبوا ... فريق النسر الذهبى يتحدى الشواكيش ، سينما الكواكب ، هذا المساء .. إعلان قديم تآكل ورقه .. مربع رقم ٢٦٥ فرن الحاج نصيف ..

قبل أن يدخل المندرة فى الدور الأول ، قبل أن يفتح الباب قبل أن يخرج المفتاح ، أطل من باب البيت القديم ، رائحة غسيل يا خس يا حلو قوى ، هل رأى بائع الخس من قبل؟ هل صادفه فى الحارة؟ نعم .. نعم .. بالتأكيد . رائحة بصل يقلى فى زيت .. أم سيد الحلوة تنشر غسيلها ، تومىء برأسها لست عطيات ... الشرفات متقاربة متعبة .. وحدة العصر الشتوية وجو رمضان النهارى يغلف الحارة .. صاحت أم يوسف ... يا بت .

لا أحد ..

تمدد بثيابه كاملة فوق السرير .. كأن الباب له رأس وذراعان وعينان ترقبانه .. قام واقفاً ليتأكد من إغلاقه مرة أخرى ... رائحة الرطوبة فى أنفه .. النافذة الوحيدة مغلقة ... لن يقف وراءها أحد سيلفت أنظار الناس . لكن! عندما يجىء الليل ... ، عض شفته . مد يده داخل الجاكتة .. لكم يبدو مظروف الخطاب الذى لم يصله إلا الأمس متآكلاً .

* * *

ولدنا الغالى محروس فياض ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . بعد السؤال عن صحتكم نعرفكم بأننا طيبون لا ينقصنا سوى رؤياكم ...

أما بعد ...

فما كنا نحب إزعاجكم ، لكنك ولدنا ونخاف عليك كما نخاف على أرواحنا بالتمام ، فنعرفك يا محروس إن عويضه طلع من السجن ، وجمع عليه مهران واد مخلوف وبالمثل الدقل ولد الحويج ، وعلمنا انهم سهروا مع بعض كام مرة . وقال عويضة إنه ما دام أبوك مات ميتة ربنا يرحمه الله ويرحمنا أجمعين ، يبقى لازم يأخذ تاره منك انت .. ايوه منك انت يا محروس ... وحلف على مصحف انه لابد يدور عليك ولو كنت فى آخر الدنيا ، وقام طلق دقنه ، وقلب شال عمامته وحلف ما يحلق ولا يعدل الشال إلا بعد ما يشرب من دمك ، واتفق معه مهران والدقل وسافروا من أسبوع قاصدين مصر . ولم يقدر راجل فى البلدة أن يمنعهم فأنت تعرف عويضه وهو على حق فى نظر مشايخ البلد وأكابرها . ونحب اطمئنانك فنقول انهم لا يعرفوا عنوانك ، فنحن لم نعط عنوانك لأحد من أهل البلدة لأنهم ناس ألسنتهم طويلة كما تعرف ويخافوا من عويضه أشد الخوف . فنحن لم نعط العنوان لأحد البتة . فخذ بالك من نفسك ، حماك ربنا ، ومن عندنا يهدوك السلام أنجالنا فرداً فرداً ويهديك سلام

خصوصى قريبنا ابراهيم خليفة وأخوه فضل الله ، كما أن صاحبك السيد المهدى يذكرك على الدوام ، ودائماً فى سيرتك .

وكل من يعرفنا يهديك السلام ، والسلام ختام .

جسدك

سيد أبو الغيط

* * *

دائماً وجه أبيه مهموم ، كان رجلا نحيلا رفيعاً كعود البوص أسمر جداً ، عيناه ضيقتان ، إذ يرجعان من السوق آخر النهار لا يجلس مع رجال القرية سواء من عائلة السماعنه ، أو عائلة الضبع ، يلقى السلام ويمد خطاه ، عندئذ يضطر محروس إلى الجرى ممسكاً طرف جلبابه حتى يلحق خطواته ، ينظر وراءه ، نظرات الرجال معلقة بهما . فى مرة سمع أحدهم يقول ، مسكين ما دام عويضة خرج من السجن يبقى أجله قرب . رد شيخ كبير يومها . يا خسارة والواحد ما قادر يعمل عشانه حاجة واصل .. يتضاعف الهم فوق الوجه النحيل . يلتفت إلى محروس .. يمد يده ، تلتف أصابعه الكبيرة حول اليد الصغيرة . يسرعان . الوقت عصر . والطريق من المدرسة إلى بيتهم قصير كله تراب .. فوقه غبار وبرد وسكون .. بوك .. بوك .. بوك .. وابور الطحين ينفث آخر ما فى جوفه ، يسرع رجل يركب حماره .. تنتشر فى الجو رائحة التوت . عند باب المدرسة يقف ينتظر أباه . قال له : ما تمشيش لوحدك .. تتغلغل رائحة التوت إلى دمه .. حوم فى الفراغ طير . صوته كالضحك . كالبكاء .. لم يعرف بالضبط . نبحت كلاب عالية عند أول الطريق المؤدى إلى البيوت ، رءوسها عالية كالغيلان ، يجىء أبوه . يسرع والكتب تثقل عنقه . تتدلى فوق صدره . عيناه معلقتان بالشمس النازلة .

تروح الشمس .. ربما لن ترجع .. لن تعود .. صحيح ! من يضمن رجوعها مرة ثانية . تذهب ولا تجىء . عندئذ لن يضىء القرية بصيص ولو من لمبة ساروخ . سيحبس أبوه نفسه فى صومعة الغلال المثقوبة الخاوية ويضمه إلى

صدره ويطخها عويضة وتختلط الألوان .. الأزرق فوق الأحمر فوق خضرة شديدة السخاء . من آخر الطريق ترتفع الأرض فثمة كوبرى خشبى صغير يعلو مجرى الماء . فجأة ظهر !! تصلبت قبضة أبيه . ارتجف قلبه كحمامة صغيرة جداً ابتل ريشها بماء ثلجى . نفذت رائحة التوت المغموس فى اللبن الرائب إلى صدره . توقف الأب . اقترب منهما طويلا . عريض المنكبين . كبير الرأس . على كتفيه عباءة سوداء . تحتها قفطان حريرى . ربما لونه أحمر . أزرق . أبيض ، أما انتفاخ العباءة فلم يستطع أن يخفى استطالة البندقية ، رائحة عطر تفوح منه ، همس الأب ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله انفرجت شفتا عويضة الغليظتين . ظلتا هكذا لحظات ثم تشكلت فوقهما ابتسامة لها لون كيزان الذرة الجافة المهروسة .

ــ لسه .. لسه .. لسه .. يا بن سلامة وقتك ما قربش ..

لم ينطق أبوه ، لم يرد أما الشمس فنزلت صامتة بعد أن فارقتهما بلا سند .

ها . وده ولدك محروس ! محروس ! بتوديه المدرسة كمان .. والله عال والله عال .. !

عويضة ينقض فى عين النهار .. يختطف الطفل وفى قلب غيطان الذرة يخفيه . يرسل إلى أهله طالباً الفدية والمهلة يومان فى الثانية الأولى لأول دقيقة اليوم الثالث يصل الرأس الصغير مقطوع إلى الأهل .. يعلوم صراخ الأم .

عويضة يختطف أولاد البلدة . لا أحد يسأله .. حتى الأم الثكل لا تجرؤ أن ترفع عينيها فى وجهه .. لا أحد .

لم ينطق الأب ، ضم محروس إليه ، فى الليل نبحت كلاب فوق البيت المجاور ، حامت رائحة خبيز ، الليل فوق البيوت كالمصيبة كالجبل ، كالجبانة . أما وجه الأب فصامت لا ينطق ، صفحة كراسة بيضاء ، قال محروس والليل يغزو قلبه الصغير :

وساكت ليه يا بوى ؟

عض شفته ، ضرب جدار الصومعة الفارغة بيده ، اهتز جسمه ورأى الصغير أباه جداراً يميل . غيط قصب ينكسر تحت زوبعة ، مركب يغرق ، جمل يبرك تحت حمل ثقيل .. سكت ، سكت ، سكت ، قال :

ما فيش حد فى البلد يحمينى منه وأنا عمرى ما قتلت حد .. عمرى ما رفعت دبوس إبرة فى وش واحد .

فى السواد حلق إليه ، يدخشنه قبضت قلبه ، ضغطه ..

أمال طالبك ليه يا بوى ؟ طالبك ليه !!

فى الصباح كانت الشمس عالية خارج البيوت ، الأب تقدم فى العمر سنين . عند الجسر قابلهما الشيخ محمود ناظر المدرسة .

ما تنساش فى البندر يا واديا محروس .

من نافذة الحلزونة الخلفية المتسخة رأى أباه يقف فوق الجسر وحيداً .. ثار الغبار .. اختفى . ثم ظهر . التوى الطريق ، دمعت عيناه وكان الرجال من حوله يثرثرون .

* * *

ـ طالبك ليه يا بوى ؟

ـ أنا طلعت من صغرى يا محروس يا ولدى ولقيت الناس بتشاور على وتقول انى مطلوب لعيلة عويضة ، أبوى قتل خاله من أربعين سنة ، قبل ما تولد وقبل ما هو يجى على وش الدنيا . حتى لما كنا عيال صغيرين كان دايما يقول أنا اللى حقطع جتتك يا ولد سلامة أبوك قتل خالى ، وأنا اللى حاخد تاره . أمه بخيته دايماً وراه من صغره .. دايما تقول له رقبتنا فى الطين وسط البلد . خالك ما تعملوش ميتم لغاية دلوقتى . خالك دمه راح هدر . المهم يا بنى إنه كبر .. سرق جاموسة واتحبس .. خرج ، برضه وراه أمه بخيته . كان يقول لصاحبه انه حيموتنى بطريقة ما حصلتش . حيموتنى وأنا عند الجسر ، باصص لى وهو ساكت . بيجى يخبط على فى الليل . أصله مفترى

ما بيرعاش حرمة حد فى البلد . كل ما أقابله الاقيه يقول لى لسه .. لسه يا ولد سلامة . الحقيقة يا محروس أنا عدت أخاف عليك منه .. دا وحش ما بيعرف أبوه ولا أخوه . إنت شايف حد فى البلد قادر يرفع عينه فيه . حتى الشيخ صالح لما رحت له قال لى وأنا حعمل لك إيه ديه شريعة البلد يا فياض . وبعدين هو عملك إيه .. عويضة لغاية دلوقتى ما هوش ناحيتك . أنا قلت فى عقلى يا بنى أبعتك سوهاج تتعلم هناك وبعدين تروح مصر . أنا هنا عارف ديتها لكن ذنبك انت إيه ؟

قال والليل يثقل كتفيه ويبلل لعابه بطعم السواد .. وليه أنا اللى حموت عويضة ! هو راعبنى أنا بس ما هو موقف البلد كلها على رجل .. مشيلها جالوس طين حد قادر يقول له كفاية ... حد قادر يقول له انت بتعمل كده ليه ؟

* * *

ربما يجلسون الآن فى مقهى ويمشون فى شارع من الشوارع . أسبوع كامل تجوب نظراتهم الطرقات وتفحص الوجوه ، والملامح بحثاً عن محروس ، محروس فياض سلامة . أسبوع ولا يحس . ربما مر بالقرب منهم ، مشى بجوار فندق ينامون به ، فى أى مكان هم يا ترى ؟ فى أى بيت ؟ أى حجرة ؟ فوق أى سرير تخفق قلوبهم لليوم الذى تنعكس صورته فى أعينهم ثم ينفضون عليه ! عندئذ يحلق عويضة لحيته . يعدل شال عمامته ، يذهب إلى أمه فى البلدة . تقيم مأتم الخال الذى لم يرتفع صوت نائحة عليه من أربعين عاماً .

دار فى الحجرة ، تسللت الرطوبة إلى عظامه ، فرقعة بومبة فى الخارج ، تصايح أطفال صغار ، وحوى يا وحوى . الجميع يخرجون إلى الطريق بعد السكون الجامد الذى نزل فوق البيوت . أثناء الإفطار تناول ما تبقى من الرغيف وقطع البطاطس الصفراء الصغيرة التى تقطر زيتاً ، أسند ذراعه إلى عمود السرير الحديدى ، هذه اللحظات الأولى من الليل ، بداية السواد ، البرد ، لا يطيق البقاء فى هذه الحجرة الباردة الصماء الجدران . الحبل برطوبة

تقوس العظام ، تأمل مقدمة حذائه .. بلاط الحجرة المربع الأصفر القديم الذى تكسر وتشقق وفصلته عن بعض مجارى رفيعة سوداء .. السقف العالى والأعمدة الخشبية التى تحمله ، لم يعدها من قبل ، كأنه يدرك لأول مرة أن سقف الحجرة محمل على تلك الأعمدة الخشبية ، ليس السقف فقط ، ثمة أدوار كبيرة . فى كل طابق أسرتان ربما . ربما أحد سكان البيت قريب ، قريب أو معرفة لعويضة وجماعته ، ربما يأويهم عنده .. لكن ! لا .. ليس معقولا ، بالتأكيد كان التقى بهم صدفة . إنه يجتاز الباب الخارجى فى اليوم الواحد أربع مرات ، يخرج إلى دورة المياه بالحوش ست أو سبع مرات ، صحيح لا يفتح باب المندرة حتى فى الصيف فهو يعرف تماماً ما سيقوله رجال البيت عندئذ . الأعزب الوحيد فى البيت كله محروس . لا ، بل فى الحارة كلها ، صحيح من يسكن بمفرده فى الحارة كلها ، عطفة كفر الطماعين ، عندما زاره إبراهيم أفندى زميله سأل المكوجى . سأل الأولاد .. قالوا له :

أيوه .. أيوه .. محروس أفندى أبو نضارة .. نمرة حداشر .. نمرة حداشر ..

وقاده من يده ولد صغير . جاء إلى المندرة . ألن يسهل هذا مأمورية عويضة . لو أنه دار على حارات الجمالية كلها . سأل أى طفل صغير .. محروس الصعيدى فين ؟ أيوه يا عم .. جوه يا عم ..

خرجت أنفاسه ساخنة . ضرب راحة يده اليمنى بقبضته اليسرى الباب صامت يصغى إلى زفراته المكتومة .. لم يدر كم مرة راح وجاء فى المندرة . لم يدر كم ألف متر قطعها فى هذه العلبة ؟ قاسها بخطواته .. ست إن أفسح الخطى .. سبع إذا مشى على مهل . قال ركن المرأة فى جريدة قرأها منذ أيام أن ربة البيت التى لا تغادر دارها تقطع فى اليوم الواحد سبعة أميال . شرع فى إبتسامة ما لبثت أن تلاشت .. كتلة الخشب خرساء .. القفل وحيد وليس متيناً .. لابد أن يشترى واحداً إضافياً .. أما النافذة المطلة على الحارة فالقضبان الحديدية لا تدع مسافة كافية للمرور من خلالها .. لكن ! لكن . لا يمكنه فتح الضلفة الخارجية .. عويضة دائماً يحمل مسدساً . عويضة تاجر

مخدرات .. عويضة لا يتحرك فى البلدة إلا وتحت عباءته كارل جوستاف . اما فى المدينة فلن يخلو من فوهة سعتها ٩ مللى أبداً . أبداً .. ربما تسللت الفوهة من بين القضبان .. السرير فى مواجهة النافذة رأساً .. ترى فى أى مكان يبعده عنها ! المساحة ضيقة وشنطة الهدوم الكبيرة إلى جانبه تكمل الفراغ .. لو وضعه بالعرض لواجه النافذة أكثر . لو تمدد بالطول فهذا العن . فليتركه كما هو ولينقل المرتبة من فوقه إلى تحته . مكان ضيق محكوم تحت مستوى النافذة بكثير . فلتظل الفوهة السوداء سعة ٩ مللى ، فليبطل الميزر .. يدركه .. أما الباب فلا بد من قفل إضافى جديد .. لو يسكن جار أمامه . لكن الفناء لعين . مخيف .. مظلم .. رطب .. خال حتى من لبة ساروخ . المصيبة أن الدورة فى الطرف الآخر منه . حتى قبل أن يجىء عويضة كان يبدو موحشاً كالجبانة .. كالخرابة .. عدا هذه اللحظات الضئيلة التى تبدأ عندما تخطو سلوى عتبة الباب بقدمها وتقف أمام باب المندرة وتصيح بصوت لين كأنه مضغ التفاح أو مذاق البيتى فور أو الأيس كريم فى يوم حار .. يا سعاد ..

تنادى صاحبتها . عندما خرج وراءها أول مرة لم ينس طوال يومه وقفتها . يداها تحملان حقيبة منتفخة بالكتب . على ظهرها تهتز ضفيرة نحاسية اللون غليظة . أما عيناها فهما السماء فى يوم صيفى حار .. فى كل صباح ينفذ الصوت إلى أذنيه . عندئذ يخرج . ويطيل وقوفه أمام الباب وظهره لها بينما يدير المفتاح فى الثقب الضيق ، وفى يوم من أيام هذا العام دار على المندرة . وتصبب عرقه وتوالت دق ن ات قلبه كقرع الطبل . بلسان مثقل همس . صباح الخير . طول النهار أحس أنه حمامة خفيفة .. شراع قارب صغير . إيشارب وردى حول رأس حسناء يتطاير مرحاً فى هواء ربيعى .. صباح الخير .. وللمرة الثالثة ردت .. لكن ماذا بعد . قال له حسن صاحبه . كلمها ما تبقاش لخمة . لكن البيت والجيران ، ماذا يفعل ؟ الآن لا يعرف ما تفعله سلوى ؟ فى هذه اللحظة بالذات . قام واقفاً . لا بد أن يخرج .. إلى أى مكان ! ميدان الحسين يزدحم بالعربات .. طوفان ضوء يغرق الشوارع المحيطة به . فى الزحام يستطيع المشى متخفياً لكن لو التقى به فجأة !

الثلاثة .. جدار أصم يطفح غيظاً وغلا . طعنة بسيطة فى الجزء الأمامى من الجسم ولن ينتبه أحد . لكن لو رأى عويضة . هل يعرفه ؟ من سنين . من الصغر . لم يره .. لم يحملق إليه . كل صبى فى البلدة يعرفه . أما هو فنسيه . لا يذكر غير عينيه الحادتين والرقبة الغليظة .. والعباءة السوداء .

* * *

الجدة بهانة ..

الله يقطعه طالع لابوه . جسمه طويل زى الجمل . كتافه عريضة ورقبته فيها ذراع . طول النهار ماشى رايح جاى فى البلد ما حد قادر يلمه .. ما خلى مرة من نسوان البلد إلا ومردغ سمعتها فى الطين . مكسور الرقبة قعد ورا البت صفية لغاية ما رجعت فى يوم من الخلاء وحرقت روحها .. داهية تخفس بيه الأرض ..

الود السيد ..

اسكتى يا دة أحسن حد يسمعك يروح يدله (يقول له) ..!!

* * *

لبن زبادى . زيتهم بائع اللبن . ليس بالتأكيد بائعاً آخر . الحارة الهواء البارود . الليل المظلم ، هؤلاء الصبية الملاعين .. لو أنهم لم يكسروا المصباح ، دخان خفيف ، الفرن القريب يستعد لعمل الكوجى تقترب فجأة . فى هذه اللحظة . تلك الثانية . كأن انفجار دوى أمامه . إبرة ثقبت رأسه حتى اليافوخ . ضبع نهش بطنه وراح يلحس أمعاءه على مهل ولا زال حيا . فجأة ! ادرك أن حياته فى خطر . كأنه لم يعرف هذا من قبل . ربما مات الآن .. بعد ساعة ، بعد يومين .. حتماً سيحدث هذا . بل إن أى شىء يمكن أن يقع الآن تستحيل البيوت إلى ضباب أزرق فاقع . يطل لسان أحمر مبلل باللعاب من شق يفتح فجأة فى السماء .. يتحول الناس إلى ذرات صغيرة . ينفتح تحت قدميه ثقب يغوص فيه حتى يصل إلى البلدة المقابلة على الطرف الآخر للكرة الأرضية . اى شىء يمكن أن يقع .. انغراس الجسم المعدنى فى لحمه هو ..

عظامه هو .. لكن متى !! كيف .. أين !! لا يدرى . عندئذ يغمض عينيه .. ولا يطل على شىء فى الدنيا .. أبداً .. أبداً .

* * *

بعد التحية ...

نلفت نظركم إلى أنكم قد تغيبتم عن العمل خمسة أيام بدون تقديم عذر رسمى . ولما كانت اللوائح لا تسمح بالأجازة العارضة أو التغيب المفاجىء ... لهذا ننذركم بضرورة .....

مدير شئون العاملين

* * *

بائع يانصيب يطوف بالمقهى والقش يملأ الطريق فى الخارج يخفى قمة السور الكبير أمام بوابة الفتوح .. يتثاءب الرجال فوق عربات الكارو الصغيرة .. شرب ما تبقى فى كوب الحلبة المطحونة . صاح رجل .. بصرة !! ضحك شاب ، مر الجرسون ، يرتدى جاكتة حكومية صفراء قديمة حاملا صينية كبيرة مثقلة بأكواب الشاى ، نفث سحابة دخان ، للمرة الثالثة ينظر الجرسون إليه ، ألصق جبهته بالزجاج ... لا أحد بالخارج ، حتى لو دخل هنا فلن تنفذ رصاصته بسهولة ، هؤلاء العجائز والشبان لا يعرف واحد منهم لكنهم لن يتركوه يذبحه ... وعويضة مجرم لكنه جبان .. لم يقتل واحدا من ضحاياه العديدين وجهاً لوجه أبداً ، دائماً تتسلل فوهته من بين أعواد الذرة ، من نافذة بيت ، لهذا قتل الكثيرين ولم تثبت عليه جريمة واحدة حتى اليوم .. فى مواجهة الباب صورة قديمة باهتة الألوان مبقعة بهباب الفحم الدفين ، رجل يركب حصاناً ... باهت الملامح مضيع الوجه ، ألف ألف ليل ونهار خطا فوقها ، فى نفس المكان ، الجدار . أمام المدخل ، لو أن الأيام تمشى إلى الوراء ـ ١٩٦٧ و١٩٦٦ ، العام القادم ١٩٦٥ ، بعد عشر سنوات تصبح فى عام ١٩٥٥ ويكون البرج لم يشيد بعد ، وسلوى الحلوة الرقيقة لم تدخل

الابتدائى .. أما أم سيد الشهية فصبية ناضجة يترجرج نهداها ، نهداها إذا ما نفضت عن شباك بيتها غباره ، وتمضى أربعون عاما ويجىء ١٩١٥ ، ترى من سيولد قبله ويراه ، أى حنين يأكله إلى هذه الأيام .. الشوارع الضيقة ، الرجال يمشون تحت البواكى ... الفونغراف فوق منضدة عالية .. زبائن المقهى يتبادلون الضحكات ، المعلم فى الصدارة ضخم .. غليظ الشارب .. يغنى شاعر الربابة .. يتوقف .. يتراهن الجميع ، من سيغلب ؟ أبو زيد ولا دياب ؟ يصيح فريق أبو زيد ، ويصيح الفريق الثانى .. لا دياب . فى شارع رئيسى ينطلق رصاص محموم يستقر فى لحم طرى وخناجر يرتدى أصحابها الطرابيش ... الموت التام أو ... بائع صحف يصيح النطائف .. المقطم .. البصير يا جدع ..

آه .. لو يرحل موغلا فى البعد أربعين سنة .. لو أنه يملك أسطوانات قديمة تدور على مهل ، تتعثر الإبرة ، تتوه فى ملفاتها العديدة .. الأصوات صفراء رفيعة .. هيه يا رائحة الزمن اللى لا يعرف فى أى أرض من أراضى الله أوغل وبعد .. آه لو يرحل .. هناك لن يرى عويضة .. لن يلمحه .. الأمان .. الأمان للمتعب المحكوم عليه بالموت حتماً . راحة القلب المنهك المخنوق المرعوش أبداً اللوحة صامتة كأنها تقول : سأبهت أبداً ... لن ترجع الوان إلى زهوها . صاح رجل معمم .. تكاثف الدخان .. فجأة .. ! أقترب الجرسون منه .

ــ الأستاذ .. يعنى لو سمحت . حضرتك . جارنا ولا ..

بلع ريقه .. أى عقارب تنسل لتشهر ذيباها فجأة .. ماذا تقصد يابن الأفاعى .. لم السؤال ؟ تلفت حوله ، انحنى ، كاد رأسه يلامس جبهته ..

ــ بصراحة يعنى .. كده جدعنه ، يعنى فى كام زبون هنا متعودين آخر الليل يلفوا كام سيجارة ، حاجة بسيطة كده . خايفين لتكون من رجال الشعبة .. وانت عارف الزبائن .. وعلى العموم المعلوم .

ــ لا .. لا .. أنا جاركم هنا .. أنا مش من الشعبة .

أى حفرة وقع فيها ؟ جار لهم ؟ كيف يقول ذلك ببساطة ؟ صحيح البيت بعيد لكنها نفس المنطقة . ما الذى لا يدريه أن سؤاله لا يخفى غرضاً أشد فتكاً . فليقم فوراً ، ثلاث ليال يجىء إلى المقهى . لن يطيل الظهور فى مكان واحد أكثر من ليلة .. العيون يعرفونه ويعرفون عويضة ، كفت الأيدى عن إلقاء الزهر .. خرست طرقعة الطاولة . مجذوب فى الركن يحملق إليه .. زحف النمل تحت جلده . ذرات الرمل الساخنة فى عروقه بدلا من الدماء . حسابك ! يرقبون ما تخرجه يده ، سقط قرش ، لم ينحن ... الهواء بارد . بوابة الفتوح . سوق الليمون ، رائحة الحنين الغامض المعذب . المئذنة سوداء غريبة . فوق السور فى الجدران حفر ضباط فرنسيون أسماءهم منذ مائة وسبعين عاما كأنهم يطلون عليه يخترقون ظهره بنظراتهم .. حسابك ! وكأن الجميع ، كل من فى المقهى .. فى الشارع ينظر إليه . أما الهواء البارد فثلجى موحش .

• • •

وأرسل عويضة مكتوب إلى أمه بخيتة قال فيه إنه قرب خالص منك ... وكما أخبرنا بأن تستعد لتقيم مأتما على أخيها فهو كما تعلمون لم تنح عليه ندابة من أربعين سنة .. فرجاء تطمئنونا بكلمة لأن عويضة جعل الشيطان يركبنا . ومن عندنا الجميع ...

• • •

لو أصحابه عرفوا ما يهدده ..

ها .. أصحابه ..

أى أصحاب ، حسن ، لم يفترقا أبداً ، السهر حتى منتصف الليل ، العودة إلى بيتهما ، الطريق البارد ، المصابيح فى نهاية الأعمدة الطويلة ترقبهما ناعسة ، فى العصر قبل انتهاء النهار ، ما أحلى شارع الموسكى ما أن يتجاوزوا شارع الخليج وتمرق عربات الترام الخضراء حتى يحوطهما الزحام ، صياح الباعة ، فاتنات ، شرابات ، التاجر بيفلس يا جدع البلوفر بثلاثين قرشا ، من المقلة يشتريان الفول السودانى ، يهمس حسن بكلمات خافتة فى آذان الفتيات ، عند

العتبة ينتهى الزحام ، يجره محروس إلى سور الأزبكية ، كل كتاب بقرشين ، أدب .. علم .. فلسفة .. كله بقرشين المكاتب بتقفل يا جدع .. رائحة العصر فى الطريق . عربات المدينة تمضى مسرعة .. أصوات موسيقى من دار الأوبرا .. وسط الميدان يقف التمثال الرمادى ، كتلة من الرصاص جامدة وإشارة من فارس النحاس بلا معنى .. إلى أين يا حسن .. تنطلق المياه من النافورة الصغيرة ، الهواء ، الأمان . يكلمه عن سلوى . بعد طول تردد قرر أن يكلمها . خرج من الباب ، كانت ترفع رأسها على وشك نداء صاحبتها ، أومأ برأسه ، أحس بها تنتظر شيئاً ، فسألها عن مدرستها وأين هى فقالت الحلمية الثانوية ، لم يدر ما يقول بعد ذلك ، كيف يدفع الحديث من جانبه ، سألها عما إذا كانت تذهب كل يوم . أومأت برأسها مخفية ضحكة . حقاً لكم هو سخيف وهل هذا سؤال ؟ عندئذ يصيح حسن غاضباً ، غبى .. كان السؤال الطبيعى متى تخرجين ثم تتفقان على ميعاد . حسن هو القلب الوحيد الذى يقتسم معه ما ينوء به .. أين هو الآن فى أى بلدة أى شارع ؟ عندما وقف يتأمل الطائرة عن قرب بكى .. عض شفتيه .. لمح الطيار يقف مرتدياً حلته الأنيقة .. سعيد هذا الانسان الذى ينطلق بسرعة ألف كيلو متر فى فضاء نهائى سحيق .. أين أمانى الطفولة ؟ فوق البلدة .. لسبب ما تمر بين حين وحين طائرة ، يرفع رأسه .. يجرى يتابعها .. لكم ود أن يصبح طياراً .. دائما يرسم صور الطائرات فى أوضاع مختلفة .. فوق منضدة قهوة .. فى مكتبة .. بل إنه يحتفظ بكتاب يحوى كل أنواع الطائرات .. جاء حسن مسرعاً ، عيناه تضحكان .. الليل حولها عميق أسود ، غريب ، امتلأ الهواء المتسرب إلى رئتيه بطيور صغيرة دقيقة مناقيرها مثلثة تنهش الكبد فى مخبئه الأمين عندما تابع الجسم الصغير يبتعد فى الهواء لم يصدق أن هذه المساحة الضئيلة تضم (حسن) .. وسنوات عديدة من عمره ... وقتها رأى بلاط الشرفة العريضة سلاسل رفيعة مزقت جسمه ، أثقلت قلبه أطنان الحديد ، قضى الليل كله ، زمانه فوق قبرص ، الآن نزل بمطار أثينا ، بعد أسبوعين وصله جواب . لن أنساك يا محروس .. بعد شهرين .. أنا سعيد يا محروس . أرى

كل يوم ناساً غير الناس . احن إليك ولكنى هنا حمامة لا قيد لها . ومن شهر لم يصله المظروف ذو الطوابع الأجنبية ، لن أنساك ، أبدا ميه . ذاب حسن فى بلاد الثلج والضباب ، لكم اشترى مجلات أجنبية ، ربما رأى حسنا فى صورة شارع مزدحم . أبداً لن يراه ، لا يعرف حسن أى دقائق تمر عليه فتصرع روحه فى كل ثانية من ثوانيها الستين ، لو معه الآن لأقام عنده ، لو سافر معه لن يهتدى عويضة إليه أبداً ، زملاء مدرسة الصنايع تفرقوا فى البلاد وابتعدوا ، قابل ابراهيم ، شاربه كثيف ، انت فين . لازم نشوفك . اتفقا على ميعاد . لم يذهب بالتأكيد ، هو لم يذهب أيضاً ، لو قابله الآن ، وقال له إن عويضة يطلبه ، يتعقبه ، قطع ستمائة كيلو متر من أقصى الصعيد ليبحث عنه ، سيبدو الخوف فى عينيه ، يتطلع إلى البنايات المحيطة .. النوافذ ، ربما يطل عليهما عويضة من مكان ما ، يتسمعهما بأذنيه الحادتين . فى حقول الذرة وسط وشيش الريح يسمع بها خطوات الأقدام على بعد أربعين ذراعاً ، سيجرى إبراهيم .. هكذا كلهم عدا حسن ، حسن الذى راح ، نسى حتى الخطابات ، لو أنه سافر معه ، ركب البحر ، يبتعد عن الأرض التى يجوبها عويضة ، ينزل فى الموانىء ، البعيدة . يرى وجوهاً غريبة ، نسمات هواء على شاطىء بحر أزرق عميق ينبض كالرئتين ، الأطفال كالأرغفة الساخنة الطرية . أصابعهم فى أفواههم . الطائرة تنتقل من مدينة إلى مدينة .... سيداتى سادتى وصلنا . بعد قليل سنهبط فى .. لكن لا أمل فى رؤية هذا . سيظل يرى نفس البيوت ، الشوارع ، الناس يجول بينهم عويضة . لن يلحق حسن أبداً ، ربما تقفى عويضة الأن . إنه لا يصدق وجود هذه البلاد الغريبة .. صور الجبال المكسوة بالثلوج البيضاء كاللبن زائفة . لا بحار واسعة تعجز العين عن رؤية آخرها . أوهام بحارة عجائز سافروا ورجعوا بلهاء مجانين . أما حسن فاختطفه الطائر الحديدى ليغوص به فى فراغ عتيم ، ليس من المعقول أنه فى مدينة يطلع النهار عليها الآن وهو هنا تحت السرير وعويضة يجس المدينة بست عيون وست آذان لا وجود لمدن يمرح الربيع فيها ، لا رجال قصار يرتدون الفراء يعيشون فى الثلج . الصور وهم . الخيالات المتحركة بهجة مزيفة لممثل مسطول . الحقيقى ، الصلب كالجبل ، كغيطان القصب .

الموجود عويضة ينهى كل شيء فى لحظة . يمحو الضحكات والدموع وقلق الليالى وفرحة القلب عند رؤية سلوى . كل ما رآه . قبل انطلاق المدفع دخل الحارة ربط الحذاء والتفت إلى الوراء ، لا أحد عند المنحنى قبل الفرن ، يقف رجل عجوز طاقيته تغطى رأسه تنزل حتى عينيه . جاكته بنية اللون تآكلت عند الكوعين . بشرته ملساء كأنها ستنفجر بالدم . يسند يديه إلى صندوق صغير مصمت الجوانب سطحه زجاجى ، قوائمه أربع رفيعة عالية . صاح طفل ، ألقت إمرأة بمياه من طابق علوى . هذا العجوز لم يره من قبل . حملق فيه . عيناه لا تتحركان . مفتوحتان واسعتان . لكنهما لا تتحركان كأنه لا يشعر به . ربما يتصنع . نزل العرق من جسمه . بدا الصيام له قاسياً قاحلاً . امتلأ حلقه بقشر سمك ، كاد يصيح فيه من أى أرض هو . هل هذا وقت يبيع فيه للناس . اندفع فجأة صبى عرفه . يوسف ابن زينب التى لا تشبع عينيها أبداً . بتعريفة حمصية ياعم حسين . اهتز رأس عم حسين . كاد محروس أن يصرخ خوفاً عندما سمع صوته . صوت رفيع رفيع جداً كخيط نحيل ومتسلخ . حمصية ولا سمسمية . جالت يده داخل الصندوق . أخرج قطعة الحلوى المرصعة بالحبات الصغيرة الصفراء ، عاد يحملق فى الهواء ، على وجهه إبتسامة سخرية ، استهزاء . وفجأة رفع يده . قبل باطن يده وظهرها عدة مرات . اهتز دماغه . اندفعت الدماء إلى قلب محروس . هذه الحركة ملأته بقشعريرة كالصداع . يوسف الصغير ينظر إليه . . انتبه إليه . أمسك يده مين ده يا يوسف ، عم حسين . دى أول مرة يقف هنا . أبداً طول عمره ساكن هنا . بس ما كانش بيطلع من أوضته تحت السلم أبداً . مرة أخرى ، عم حسين يقبل يده . ضرب الأرض بحذائه ، أغلق باب المندرة جيداً . .

عاد يتأكد من إغلاقه . . زعق راديو . . موسيقى كئيبة حزينة . فى البندر كان يقف على سلم المحطة . السلالم عريضة والرجال يجلسون القرفصاء . أمامهم مقاطف وصفائح وصناديق منبعجة وقلل فخار . عابرو الميدان قلائل . المقهى الكبير فى مواجهة المحطة باهت الطلاء يتصدره إعلان قديم . . سجائر سمسون . . معدن كوتاريللى . . ومضت بقرة بنية اللون . سمينة تعبر الميدان متمهلة . صفرت قاطرة ، نزل هدوء غريب كأنه الصقيع فوق الغيطان آخر

الليل . من أحشاء الحوارى . موسيقى لونها نحاسى . طويلة كأنها آخر زفرة لطفل يرحل عن البيوت والخضرة ، تخفت ، تعلو كالنحيب ، انقبض قلبه ، مصمصت النساء شفاههن . بدا رجال قصار يلبسون أردية صفراء ويحملون أبواقاً نحاسية كبيرة . يضعونها على أفواههم لحظات فيحوم النحيب وينبض صداع القلوب ، يخفضونها فيسمع نواح النساء الماشيات وراء الرجال . أغمض عينيه عندما رأى الميدان خالياً ، فوقه صفرة غريبة . أما الهواء فدسم كماء ساخن . فى هذه اللحظة دخل القطار المحطة . لا يدرى إلى أى البلاد سافر يومها ، ولا أى شخص يجلس الآن فوق المقعد الذى أسند ظهره إليه يومئذ ، أين راح اليوم نفسه . النهار الزجاجى . الآن يقول انه ربما لم يمر يوم كهذا ولم يمت أحد . أى شىء يعلمه عن حال الجثمان المدفون من سبع سنوات ، اليوم الأول كما هو . الثانى تجحظ العينان وتنتفخ العروق ، ينزل حارس القبر ليسرق الكفن . فى الثالث تعلو البطن وتنمو آلاف المخلوقات الصغيرة لتأخذ نصيبها من الحياة ، شد الغطاء حتى عنقه . تأمل خشب السرير والمرتبة ، أمن المعقول هذا ؟ فى يوم معين ، لحظة بعينها يغمض عينيه ولا يفتحهما أبداً . . أبداً . . لن يسمع ولن يرى . . أما هو فما أقرب اللحظات .

لن يكف الوريد عن ضخ السائل الأحمر فجأة . لن تخرج الذبابة الزرقاء ، ترفرف بجناحيها ليتلقاها ملائكة اليمين والشمال فيسألونها الحساب . عويضة هو الذى حدد ميعاداً لكل هذا . ترى هل عرف الميت أو لا ؟ أما هذه الليلة فلم يمر أبرد منها طوال الشتاء . ينتهى رمضان ، لساعاته مذاق غير المذاق . كم مضى من الليل ولم يتبق عنده أكل للسحور يجىء زينهم بعد قليل ويشترى منه سلطانية اللبن . صوت خطوات ثقيلة ، رفع رقبته . . أصغى . الوقع ثقيل . لم يتعود سماعه فى مثل هذا الوقت . . كل ليلة . هل هو الحذاء الأسود والرقبة المحلاة بقطعة أستك صغيرة تتيح للقدم الغليظة أن تنزلق داخله . . ازدادت الخطوات وضوحاً . أين المخرج ؟ النافذة . القضبان الحديدية . . دخل الحذاء ، باب البيت . . فى الفناء . تردد أمام الباب . . صمت ! بلع ريقه . أرهف أذنيه محاولا التقاط صرير البلاط تحت الثقل المخيف نزل سكون

قس .. حد سكين .. ماسورة ميزر .. أين راح ؟ ربما ينتظر حتى تجئ الفرصة . آلمه رقبته المتصلبة . السرير يخنقه .. خرج من تحته على مهل محاذرا أن يحدث صوتاً ولو ضئيلاً . فجأة توالى صوت عصا تصطدم بجدران البيوت . فوق النوافذ ، صوت عجوز كالماء البارد فى يوم حار تسرب إليه :

ـ وحد الله يا عم سيد .. يا عم صالح وحد الله . ياسى سعودى ياعم نادر وحد الله .. يا محروس افندى ..

لا .. لا داعى . قفز ناحية النافذة ، صاح من ورائها :

ـ عم عبده .. عم عبده .

نزل صمت لحظة ، جاء صوت الرجل من الخارج متسائلا ، أجابه بصوت خال مرتجف :

ـ ما فيش داعى تنده إسمى .. أنا دايماً صاحى .. و .. عيديتك محفوظة .

بدا العجب فى صوت الرجل عندما أجابه موافقاً ، لكن من يعلم ؟ ربما لم يكن هو صاحب الخطوات . ربما لم يهتد إلى البيت . ربما تصادف مروره ، يسمع النداء .. عندئذ يكون سلم نفسه إليه ..

امض .. امض يا عم عبده .

ـ وحد الله .. وحد الله يا نايم .

* * *

توقف حسين المكوجى عن العمل .. سأل صبيه :

ـ مش محروس أفندى اللى دخل ده من شوية .

ـ آه .. أفتكر هو .

لوح الأسطى حسين بيده :

ـ نسيت أقول له إن واحدا سأل عنه ، إبقى فكرنى أقول له ؟

ـ فيه سبانخ وكوسة وبسلة .. وفيه مكرونة بالفرن وكباب وكفتة ..

الدخان يحمل رائحة اللحم المشوى .. المريلة البيضاء الكتابة فوقها بحروف حمراء متسخة . مطاعم الحسين . الجالسون فى المطعم قلة . هذا العجوز بجوار الجدار .. إمرأة بيضاء فستانها أخضر .. ورجل أقصر منها يجلس أمامها فى الطريق الخارجى . شبان يلوحون بأيديهم يغنون . عويضة لا يأكل الآن فى المطعم .. ليس بين الموجودين .. ربما يقف على ناصية الطريق يرقب الشارع .

لكنه ليس بالداخل :

ـ أيوه يا أستاذ ..

لا زال ينتظر . أى شىء يأكله ! من أيام لا يعرف غير الجبنة والحلاوة الطحينية ..

ـ سبانخ .. ارز .

الوجوه تتتابع .. الأضواء فى الخارج .. حمراء وزرقاء وخضراء خادم القهوة المقابلة يروح ويجئ بسرعة .. الزبائن يتكاثرون ، سحابات البخور والضباب تتصاعد لتملأ الفراغ .

عربات الباعة الصغيرة تصطف على جانبى الميدان .. المئذنة الرشيقة تطعن الفضاء . لو وقف فوقها لاستطاع رؤية كل آدمى فى المدينة .. فى البلدة يصعد الرجل ليجنى البلح من النخيل .. يطلق صوتاً ليحذر الحريم فى البيوت المحيطة المنخفضة .. أما عويضة فلو انسرب إلى المئذنة واستند إلى الحاجز الحديدى ! سيعرف أين يخطو ؟ كم مرة تنفس فى الثانية ! كيف ينبض قلبه ! الأمنية التى تجول بعقله ، نوعية الذكرى . أهلّ البلدة يعرفون أن عويضة يلم بكل شىء عن ضحيته قبل انقضاضه . عندما قتل الأعور جاد الله كان قد اختار التوقيت الذى يتمدد فيه بين ذراعى امرأته سعدة التى يشتهيها ويشتهى مصاغها . لن يغيب أى شىء عنه ، هكذا يعلم الجميع .

تلفت حوله .. الطبلة والمزمار من الطرف المقابل للميدان . طلبة يزعقون . يضحك شبان حوله . شنبو ياشنبو .. يمزون خصورهم ، نظر إليهم وقرض شفته . كأنه يقف على قنطرة صغيرة والماء يتدفق هادراً من تحتها . إضحكوا هزوا أردافكم يا من يماثل تاريخ ميلادكم ميلاده . التصقوا بالبنات ، أحقيقى أنكم بعيدون عن عويضة ؟ لو أعجبته ساعة فى معصم أحدكم لتتبعه وقطع يده .. لو اشتهى صاحبة واحد منكم لأخذها فى وضح النهار والشمس تغلى فى السماء ولن يجرؤ أحد على هز أصبع فى وجهه .. صاح منادى العربات .. نزل رجل حول رقبته كوفيه حمراء منقطة بدوائر بيضاء .. دار برأسه .. رفع المنادى يده بالتحية . أشار الرجل إلى البيوت القديمة القائمة عند ضلع الميدان الشمالى :

ـ إيه ده ياريس !

ـ دى بيوت يا سعادة البيك .

هز رأسه .. ابتسامة تودد على وجه المنادى ـ أشار إلى المجذوب حامل وعاء البخور .

ـ إيه ده ياريس !

ـ دا بنى آدم ولا مؤاخذة مجذوب يا بك .

هيه ، إلى الحسين ، أين غاب عنه ، من سنين لم يعرف الطريق إلى هذه الهدأة السكونية التى تلفه منذ مئات السنين ، على بعد خطوات منه ولم يدخله ، لم يقبل مأوى الرأس المفصول عن الجسد والتى طارت من كربلاء إلى مصر مدة أربعين يوماً لتخفيها أم الغلام المسكين الفقيرة وتفتديها برأس إبنها ، عويضة لن يقبل الفدية ولو كانت خزائن قارون وكنوز سليمان الحكيم ، كيف يرفع رأسه وسط الناس ، لابد أن يجز عنق محروس .

المقصورة مغلقة . فوق الباب الحديدى المزخرف ورود حمراء كبيرة ، بالمدخل هدوء غريب تغذ حتى نخاعه ، فى حائط الباب الأخضر خارج المسجد شق لا يروح العطر منه ، قال الشيخ العجوز إن الرأس حط هنا بعد رحلته

الشاقة . ومن يومها والعطر الحزين لا يفارق المكان ، قال الشيخ الحزين أيضاً لو كشفوا عن الحسين الآن لوجدوه على حاله ، ملأته دهشة . أكد الشيخ ما قاله . ها هو يرى سيد الشهداء ، رأسه الحبيب الطاهر الذى لم يكف عن ذكر إسم الله طوال حياته . بداخل المقصورة يسيل الضوء ناعماً وقوراً ، إنه يرى سيد شباب أهل الجنة ، هذه الخضرة بجوار الحبيب . تحت السقف العالى المرتفع ، هنا وليس فى أى مكان آخر لن يستطيع عويضة اللحاق به . فليدخل الحبيب سيصفح عنه ، يغفر له ، إنه ظل سنوات يمر كل يوم أربع مرات أو ستا ولم يدخله بل لم يفكر فيه . الآن لن يغادر المكان ، بالداخل أمان لن يعرفه إلا هنا . بجوار الجسد الذى لم تجف دماؤه ، ولن تجف حتى ينفخ النفخة الثالثة فى الصور ، نفخة طولها أربعون ألف سنة ، يعقبها صمت أربعين ألف سنة ، وينفخ نفخته الثانية ، ثم يجىء نفس الصمت حتى ينفخ النفخة الثالثة . لكن الباب موصد يا سيد الشهداء ، المقصورة مغلقة ياعصب العين ، يا صاحب الدماء الزكية ، يا ربان السفينة . عويضة يسعى وراءه ،

يقتفى رائحته ، يتسمع صوته ، همسه ، حركاته وسكناته ، عويضة يقتله فى هدوء ، قم يا زينة شباب الجنة ، يا ملجأ الشاة المذعورة من الذئب ، يانور الأرض ، محروس يناديك أنت ، أبوه ، قتلوا ابنك فى حجرك بعد أن منعوا الماء عنك . جرحوك مائة وسبعين جرحاً . ذبحوك واحتزوا رأسك وداسوك . آه لو يدخل فلن يفارقك أبداً ، ولن يقوم من جانبك وفى كل عام ، فى نفس ميعادك ، يقيم الندب عليك سنة بأكملها حتى تبعث حياً .. لو يدخل .. لو يستكين .. الباب موصد .

المنبر الخشبى زخارفه صماء .. بكى .. يد تقبض قلبه كأنه صبى صغير تركه أهله ونزل عليه الليل فى الخلاء بعد أن دخلوا الملجأ الأمين . قعد بين الرجال . الجميع يحملقون إلى شرفة خشبية عالية ، لم ير شيئاً . الجميع صامت خاشع . مال إلى الجالس بجانبه يستفسره ، قال الرجل وكان عجوزاً جداً .. جبته قديمة . قفاه نحيل ، يصلبه عرقان غليظان جافان ..

مقرىء جديد صوته أحلى من صوت عبد الباسط .

ياه .. منذ متى لم يكلم أحداً .. كأنه يحرك لسانه بيده ..

ـ يا ترى حيقرأ سورة إيه ؟

لم يرد الرجل .. النجف الثقيل ينوء به السقف الملون .. رجل يحمل قربة ماء ويمسك أكواباً نحاسية ، تناول منه كوباً تسربت برودته إلى لحمه ، ما ألذ الماء فى هذا الوقت من الشتاء ، نهاية العام ، أومأ الرجل شاكراً ، عاد يتتبع زخارف السجادة المعقدة المتشابكة ، رفع رأسه . الرجل يحمل قربته ، ينظر إليه غاضباً .

ـ تعريفة يا أستاذ .

كالملسوع انتفض ، يبحث فى جيبه عن القطعة المعدنية الصغيرة انصرف الرجل مبتعداً .. يا كريم .. الكل يحملق ناحية الشرفة الخشبية العريضة .. لا صوت ، وقف ، أى ضجة ثقيلة فوق أرض الشارع ، الطريق مغطى بالرؤوس ، نزل تحت الرصيف إلى أين ؟ البيت ! المخبأ ! تحت السرير ! ربما ينتظره بجوار دورة المياه خارج المنذرة ، ربما عند الناصية . لا يعرف إلى أى الناس تنتمى هذه الملامح التى وصفها له حسين المكوجى ، لكن هذا الغريب رفض أن يقول اسمه ، بل وسأل عن ميعاد دخوله وخروجه .. لابد أن ينتظر والزحام سيتلاشى بمجرد عبوره حارة الوطاويط ، تصبح الشوارع وحيدة قاسية شرهة إلى الدماء تماماً كما سيجد ميدان الحسين ثانى يوم العيد .. تلوب كل هذه الضجة ، كثيراً ما عبره فى الليل . يبدو متسعاً خالياً تماماً ، إلا من شحاذ يفترش رصيف الجامع . بائع لبن يغلق أبوابه . لكم يبدو الحسين وقتها وحيداً عجوزاً تثقله آلام سنين طويلة من الغربة ، آه لو أن المقصورة مفتوحة .. ألف ألف سنة والرأس لم يلتق به أبداً .. أبداً .. أما عويضة فما أقربه ، لن يرجع إلى المنذرة سيمضى بين هؤلاء حتى يبدو النهار الأزرق ، مضى حول الميدان ، لو سلوى معه ، أى أمان يحوطه ، أى مشاعر تريحه ، منذ شهر وكانت أنفاس الخريف تحتضر أمام زحف الشتاء القاسى .. رآها تعبر الميدان بمفردها متجهة إلى محطة الأوتوبيس ، صمم أن يكلمها ، تردد أمامها كثيراً . اندفع وتدفقت الدماء من قلبه إلى أقصى أطراف جسمه ، ركبت ، ركب ، نزلت .. كاد أن

يحاذيها بقرب هذه الحديقة الصغيرة . عندها تراجع فجأة ، كأن يداً لطمته ، تهاوى على المقعد الرخامى وراح يرقبها تبتعد . ذراعها فى ذراع شاب . ربما يشبهه ، بما لا يقل عنه .. أى عجز ثقب قلبه . الوقت عصر والشمس فوق النيل لا تبين . عبر الكوبرى . أى وحدة مرهفة كسن موس مصقول آلمه ؟ حتى حسن راح ، لو معه لحكى له ما هز قلبه .. لكنه بعيد . وسلوى نائية مثل كهوف الجليد ولا أصدقاء .. لا شىء غير وجوه غريبة تمر حوله ضاحكة زاعقة .. هامسة .. حتى المنذرة بعيدة .. لا يجرؤ على الرجوع .. لكن إلى أين ؟ هل صدمه أحد ؟ .. رجل عريض طويل .. جلباب بلدى .. معطف وبر الجمل .. إبتسامة خفيفة على وجهه ينظر إليه .. لا يذكر ملامح عويضة .. لكنها أوصاف المكوجى .. التفت وراءه .. غاص قلبه .. أين الرجل ؟ لا يعرف عويضة . لكنه سيشم رائحته .. عويضة قريب من هنا .. ربما داخل واحد من هؤلاء ... الحطاب فى جيبه من البلدة يقول إن اللعين أرسل لأمه يأمرها بتجهيز مناحة على الخال المقتول من زمن لم تعرفها كفور ولا نجوع البلدة منذ ألف عام .. أين هو .. ؟ أين ؟ تزايد اندفاع الناس حوله ، دار حول الضلع الشرقى للجامع ، الموازى لحارة أم الغلام . ابتسم معلم شاربه ضخم كبير طرفاه مرفوعان إلى أعلى .. داخل فمه أسنان ذهبية ولسان أحمر يهتز اهتزازات صغيرة سريعة .. صاحت امرأة على رأسها صف من ريش ، اشترى منى بخور ، صاح مجذوب يرتدى جاكته عسكرية قديمة مليئة بالأنواط والشارات وقطع قماش صغيرة . رفع سيفه الخشبى الأخضر والمكتوب فوقه .. لا إله إلا الله .. زعق فى الناس .. أين عين الخلد ؟ مد شاب ذراعه . احتضن صديقه .. تراجع إلى الخلف ليتأمله .. يا راجل من إمتى ما شفتكش .. خبط البائع على طبلة بنية اللون مزخرفة الحواف . قال للشاب الذى يرتدى قناعاً ورقياً يمثل قرصاناً ، دى نغمتها ترقص أجدع ست فى البلد . مد الشحاذ يداً واحدة سليمة .. سبع عيال وأمهم يا بك . طوح شاب يده فاحتكت بردف بنت قصيرة ممتلئة .. تنهد بقوة . شاب أسمر طويل هز وسطه ويلعب حاجبيه .. قال بائع الكتب . بجنيه وعشرين فى المية

تخفيض يبقى ثمانين .. اللافتة على السرادق الكبير . دخول عمومى بثلاثة قروش .. فوق الرصيف اقترب منه طفل صغير أبيض حلو العينين ، قال بصوت هامس . عاوز نسوان يا بيه . ضعف الضوء حول المئذنة صرخ رجل مقلداً صوت امرأة . تطايرت رائحة الكباب من مدخل خان الخليلي .

والنافورة الرخامية خرساء جف ماؤها . الرجل قريب منه .. لكنه لا يراه .. أين ؟ صوت المطربة سيدة أم السعد صاحبة السرادق المطل على حارة الوطاويط ، توقف غناؤها .. تتابعت الأصوات .. والمعلم . و . . . والأستاذ وأنا وأنت سلام كبير قوى .. هل يسمع إسم عويضة أبدا ؟ لكنه يعذبه . يعرف أهل البلدة المساكين عادته ، لا يقتل ضحيته مرة واحدة ، يتركه فى متناوله حتى اللحظة التى يحددها هو ، وهكذا يعيش كل مزارع صغير أو صاحب بقالة أو صاحب جمل فى البلدة . وهو يظن أن عويضة يطلبه هو وعينه على ماله ، لهذا لا يجرؤ واحد على الوقوف أمامه أو ذكر اسمه بصوت مرتفع .. بالتأكيد عويضة قريب جداً ، لكن أين ؟ لا يعرف ، ربما العينان الضاحكتان الناعستان ، الصوت الناعم .. الآذان المرهفة .. ابتسامة البائع الزائغة .. غضب جندى المرور . مساومة البائع .. شهوة المراهق إلى لحم امرأة ، حتماً هنا .. الميدان كله يعرف ولا يعرف ومع هذا يضحكون ويتمايلون ويشترون الطبل ويرتدون أقنعة الريان بلود .. عويضة هنا .. أفيقوا ! أحقا إنكم لا تعلمون .. أبداً .. أبداً .. حتى ساعى البريد الذى حمل رسالات الجد أبو الغيط كان لا يبدو عليه أنه يعلم ما تحويه الخطابات ، فوقه السماء لا تبدو من الأضواء .. آه لو أنه فى مكان ناء ، لو هناك حياة غير الحياة لو عاش إنساناً آخر فى عالم ثان .

لن تمضى غير دقائق وثوان يشق الزحام ، تخمد كل هذه الضجة ، يسكت الشباب الذين يرقصون التويست ، تظل سيقان النساء مكشوفة بلا حقائب تغطيها ، عندما يقترب منه سيشيرون كلهم ، لكن لن يرفع واحد منهم صوته باحتجاج ، لكن لابد أن ينبههم قبل اقترابه ، لابد أن يوجد شخص ما فى هذا

الزحام يحميه ، لم يخلق الله عويضة بمفرده ، لابد .. لابد .. دار رأسه تصبب عرقه غزيراً يائساً . من يوقفه فى الزحام ، الكل لاه .. يضحك .. يغنى . اقشعر جسمه . زحف تحت جلده نمل شائك يجز عروقه ، تلفت وراءه وأمامه ، إلى اليمين وإلى الشمال .. ثمة ذبابة تطن بجوار أذنه ، أى حشرة يسمع أزيزها فى الطوفان ، هى روح أمه أم أبيه ؟ يقولون فى البلدة أن روح الميت ، إذا ما حنت إلى شخص حى ، بدت فى هيئة ذبابة زرقاء شفافة الجناحين لا يراها ، لكنه يسمع الآن .. ابتلت ثيابه من العرق الغزير ، اعتلى قاعدة النافورة ، عبر المسافة الضيقة التى تفصله عن الزهرة الرخامية التى تتوسطها .. انتبهى يا غابة من رؤوس سوداء ، لابد أن يعرفوا أى خطر يكمن بينهم ، يتهدده ، أى سكين تكاد أن تلامس رقبته ؟! لابد يا غابة الرؤوس السوداء والعيون والأنوف والضوء الأزرق والأسنان اللامعة ، ووقع الخطى فى جوف الليل ؟ لابد أن يشعروا به ، ينتبهوا إليه .. رمى جاكتته فوق الرصيف ، لوح ببطاقته الشخصية ، زعق بأعلى ما يمكن لأوتار حنجرته أن تخرجه ..

ـ أنا واحد وثمانين سنة وستين .. جمالية .

طوح بالبطاقة ، فليلتقطها عويضة ، فليعرفه ، فليريحه ، فليقبل إن لم يجدوا أحداً من الزحام يمنعه فلا مانع بعد اليوم ، ولا عاصم ، انتبهى يا غابة الرؤوس السوداء ، يا معرض العيون المترجرجة الزجاجية .

أشارت سيدة أنيقة جداً فستاناً أخضر قصيراً جداً ..

ـ لوك يا حليم .. الراجل باين عليه حيلعب لعبة .

ثم مضت ، رمى آخر قطعة من ثيابه الداخلية فى اتجاه المسجد ، تكاثف الزحام ، أشار إليه شبان ضاحكون . الذبابة تطن من جديد أى صوت آخر سمعه ، لم يدر تماماً ، بكل ما تبقى فى خلاياه من قوة صاح للمرة الأخيرة ..

ـ أنا واحد وثمانين سنة وستين ، أنا واحد وثمانين وستة وستين جمالية !!

الجميع يضحكون ومجموعة شبان يرفعون عقيرتهم بالغناء . شنبو يا شنبو .. لم يشعر بوخزات البرد التى تلسع لحمه العارى ، لم يدفع عنه أحد ما يهدده ،

توالى وقع طبل سريع متوتر محموم يوشى بجسم راقصة يتثنى ، كأنه سمع ضحكة هازلة تخرج من فم سمع أوصافه من حسين المكوجى ، عاد طنين اللبابة ، دفن رأسه فى صدره ، وانحنى حتى كاد جسمه أن يتقوس ، وسمع عويضة يشق للزحام واثقاً ، ثقيل الخطى لا يوقفه أحد .

هداية أهل الورى لبعض مما جرى فى المقشرة

اطلعت على هذا المخطوط منذ شهور فى خزانة كتب أحد الجوامع القديمة بالجمالية ، وأثارنى بغرابة موضوعه ، إذ لا يمت إلى أى من المسائل المتعلقة بالفقه أو الشرع ، حيث تضم هذه الصفحات ذكريات آمر السجن الذى عرف فى عصور المماليك الغابرة باسم المقشرة ، وكثير من صفحات المخطوط مفقودة ، غير أنى آثرت نشر ما وجدته لندرة مادته وغرابتها ، ولم أتدخل إلا نادراً كذا لاحظت أن المؤلف لم يحدد عصر السلطان الذى تولى فيه أمرة المقشرة . غير أنى أرجح أنه كان زمن السلطان الأشرف قايتباى . أو الأشرف قانصوه الغورى ، آخر سلاطين المماليك . ولعل القارىء أو الباحث يجد فى هذه الصفحات مادة مفيدة وصفحات هامة لبعض مما كان يجرى فى مصر خلال هذه الأزمان البعيدة ، غفر الله لنا ما تقدم وما تأخر من ذنوبنا .

رب يسر وأعن..

أغفر ذنوبنا يا سلطان السلاطين ، واستر عيوبنا يا أرحم الراحمين إياك نعبد وإياك نستعين ، اللهم صل وسلم على سيد المرسلين الذى كان نبياً وآدم لم يزل بعد بين الماء والطين وعلى آله وصحابه أجمعين .

أما بعد ..

فلما كنت قد توليت إحدى الوظائف الغريبة فى زمانى ، التى أخدم بها مولاى السلطان ، ونظراً لما وقع لى من حوادث غريبة ، ونوادر قد تبدو للبعض أليمة وللبعض ظريفة ، ولما كنت أقضى جل وقتى فى المقشرة ، قلت فلأخط شيئاً مما أراه وما أسمعه ، ومن يدرى ، ربما قرأ مولاى أشرف زماننا ما كتبته فيعرف إلى أى حد تفانيت فى وظيفتى وذقت فيها الألم ، وكدت أرى منها الهلاك ، عندئذ يرق قلبه ، وينعم علىّ بتقدمة ألف أو ربما دنانير من بعض جوده ، وأعلم غفر الله لنا أجمعين ، أن السجن الذى أنا آمره ، يقع بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين جامع الحاكم بأمر الله ، وسمى بالمقشرة ، لأنه كان قديم موضع فى كان يقشر فيه القمح . والعامة والسوقة والمشايخ وجميع أهل مصر يقولون أنه من أبشع السجون وأشدها هولاً . يقاسى المسجونون فيه من الغم والكرب ما لا يوصف . والذين يقولون عنه هذا لم يروه من الداخل فكيف بهم إذا دخلوه . ولو مر الرجال والنساء من جواره لقالوا سراً أو علانية وهم من بنائه يتعقدون ، اللهم عافنا شره وبلاءه . وأسمعهم يقولون هذا فأسخر منهم ، لا يستبعد واحد مكتم نفسه عن المقشرة . ربما اليوم وسط عيالك وإلى جوار امرأتك ، وفى الصباح فى أسفل طباق المقشرة .

وفى بعض الليالى التى أقضيها هنا أضيق بوجودى وبنفسى ، فى النصف الثانى من الليل يكون الهدوء غريباً كالموت والظلام مخيفاً حتى للذين ألفوه . وأسمع أصواتاً تجىء من الأحياء المجاورة . لا يبين فيها صوت الرجل من صوت المرأة . ولا تفسر منها كلمة ، أقوم متجولاً حول السور الذى يعلو البناء . إذ أقترب من منتصف السطح أسمع همساً .. أصواتاً رفيعة مطوطة يقشعر لها البدن ، من هنا يبدأ سلم حلزونى هابط إلى عمق كبير . على جانبيه حفر ضيقة فى الجدران . لا يتمدد فيها الإنسان على راحته كما لا يمكنه الوقوف بطول قامته . هذه هى المواضع التى يربط فيها المحابيس ، وربما نزلت من حين إلى حين يتقدمنى السجانة ينيرون السراديب ، وأسأل نفسى ما الذى يفكر فيه شيخ قضى هنا ما يزيد على سبعين عاماً . أو شاب مضى عليه عامان .

أتأمل وجوههم . أداعبهم وربما ضربتهم فجأة وصحت فيهم إنه لا أمل لهم يرجى . فالوجوه تبدو كريهة ممقوتة . وإذا أردت أن تهمل رجلاً من المحابيس الجدد يبكى كالنساء ويقول أنا امرأة ، فأخبره أن عياله مات منهم اثنين وأن زوجته طلبت الطلاق منه وتزوجت ، وإذ ينزل الليل تطلع الوطاويط ويسمع صوت أجنحتها عندما تصطدم بالجدران أو أراها تأكل النبق المختطف من شجرة قريبة . وساعات يصرخ المحابيس من أسفل وتنبعث رائحة كريهة مهولة تهب فى أحايين كثيرة فجأة ويكاد السجانة أن يهجوا على رؤوسهم لفظاعتها . ولم يعرف سبب ذلك .

جاءنى سجان كبير وأخبرنى أن الأمير طيقطباى مقدم ألف أرسل جملة محابيس لإيداعهم عندنا . قلت كم عددهم . قال أربعون ولن تمضى ساعة أو أكثر وكان الليل قد نزل تماماً حتى سمعت جلبة بأسفل . وقفت عند حافة السور وأنا أتحرق لرؤية المحابيس الجدد . هكذا كلما جاء وارد جديد تمنيت أن أراه بسرعة . وأروح أخمن من ؟ إعلم . إننى لا أعرف من يجىء إلى المقشرة إلا بعد تسلمى له ، ومن يدرى ، ربما كان أحد الأمراء ، ربما الأمير الدوادار أو أتابيك العساكر نفسه لا يعلو إنسان فى بر مصر والعرب والعجم على المقشرة . وإذ يكون واحداً (كلام مطموس فى الأصل) ماذا يدور بباطنه . وكيف . وكيف يجد نفسه الآن . بعد أن كان فى صباح اليوم نفسه . أميراً عظيماً تدق على بابه الكوسات (الطبول) ويمشى السعاة أمام ركبه . وقبل شكه فى الزناجير (الحديد) أضربه مرة واثنين وثلاثاً وأجعله يقاسى فى البهدلة والمشاق ما لا خير فيه . لا يعلو إنسان على المقشرة . أنت أمير . أمير فى بيتك وعلى نسائك . وأقول له ربما خربوا بيتك واغتصبوا نساءك ونهبوا شاشك وقماشك وكلما علا الإنسان فى مقامه زدنا فى إيلامه . هكذا يقول مولانا وسبحان من له الدوام .

قمت متجولاً فوق السور . الطريق الكبير تحتنا مقطوع الرجل من المارة ، عليه خلة . فمن أيام نادى مولانا بألا يمشى أحد بعد العشاء ولا يغادر المماليك الطباق ولا ينزلون إلى المدينة ملثمى الوجوه . ضربت الحجارة بيدى وناديت

سجاناً كبيراً . سألته .. متى يصل الوارد الجديد ؟ قال بعد ساعة زمن . قلت ألم تعرف بعد من هم ؟ قال إنهم فلاحون . هززت رأسى بلا اهتمام . هذا شىء يثير القرف . سألنى أين نضعهم ؟ قلت فى القاعة الصغرى . قال الأربعون مرة واحدة ! قلت نعم .

رب يسر وأعن ..

كل منهم كالعود اليوص أو عصا الخيزران ، ثيابهم مقطعة .. أيديهم مربوطة إلى بعضها .. عيونهم جاحظة كأنهم زجوا إلى يوم الحشر . لا تعلو منهم همهمات أو أصوات . أما الليل فساكن لا يبدد هدوءه صوت . ولن أنام فى وقت قريب . فلأعرف بعض أحوالهم قال سجان كبير إننى لن أجد فيهم ما يسر . كلهم مثيرون للقرف سألت واحداً منهم . ماذا فعلت يا إبن معيكة ؟ طلع صوته متحشرجاً غليظاً . والله لم أجن ذنباً ولم ينكسر على درهم واحد من مال السلطان . صفعت آخر على قفاه وتلقى الصفعة بهدوء كأنه يقول .. إضرب غيرها ورجعنى إلى امرأتى وعيالى . ثم قال إنهم كانوا فى الغيظ يرمون البذار ولا يدرون إلا الفرسان يكسبونهم . ويتقون أربعين رجلا ويشكونهم فى الحديد . سكت الرجل وصاح فلاح عجوز . جاءوا بنا على أننا عربان يا سيدنا ، ما قدروا يمسكوا عربياً واحداً من أهل الجبل .. فأمسكونا نحن حتى يقولوا للسلطان .. أنظر أحضرنا لك أربعين عاصياً . ونحن لم نعص ولم .. درت حولهم ولمحت أربعة صبية صغاراً يتمنى أى من المحابيس أن يسكن مع واحد منهم ، صاح سجان كبير آمراً إياهم بألا يزعقوا فى الليل . لأن السلطان سوف يعرضهم قريباً . ارتفع عويلهم كالنساء . زعقت فيهم فسكتوا . ورأيت رقابهم نحيلة جداً وعظامهم بارزة لمحت شاباً عيناه واسعتان . سألته هل أنت متزوج ؟ قلت إمرأتك شابة ؟ لم يرد . كتفاه عريضتان . قلت على مهل . لن ترى عيالك أبداً تصور هذا وتمعن فيه جيداً ، ظل صامتاً ، وقلت له إنك أول من ستقطع رقبته أو يوسط على باب زويلة ، ألا تخاف ..؟ فقال أنا حزين وبى رجفة ، قلت هذا لن يمنع وأشرت بيدى

وغمزت بعينى ، سألنى فجأة ، كم سأقضى فى المحبوس ؟ أطرقت لحظة ثم قلت له أتحب أن تعرف ! لم يرد . قلت .. إذا قدر لرقبتك ألا تقطع أو جسمك ألا يوسط ، فربما تقضى عندنا تسعين عاماً إذا قدر لك أن تعيش هذه المدة وربما ستة ، وربما عشرين ، لن تخرج إلا إذا أمر السلطان بذلك ، وأنت من سيوصل أمرك إلى مولانا ؟ هل تعرف والى القاهرة أو أميراً كبيراً حتى يشفعا لك عنده ؟ رأيت الخوف يغشى عينيه ، قلت لنفسى هذا واحد لا يعرف ما ينتظره ، فلأقل له ولأتمعن ما يدور على وجهه ولأخمن ما فى نفسه . وها هم بقية الزعر مصغين كأن على رؤوسهم الطير ، قلت هذا إذا لم تمت مطعوناً « بالطاعون » أو لم يمص الوطواط دمك ... وأعلم أن الوطواط فى المقشرة كالرجل والعقرب كالبغل ، أما إذا شعرت أنا بالملل فى أى ليلة فربما جئت بك عندى لأعريك وأقطع لك « كلام فاحش أثرت حذفه » واعلم أننا لو فعلنا ما نريد بك ، تصور ، أى شىء يخطر لنا ، فلن يتكلم أحد ، ولن يرفع رجل سبابته احتجاجاً ، ولن تعول عليك امرأة أو تنوح عليك زوجة ، قلت لنفسى إننى أعرف تماماً ما يجرى الآن فى عقله وصدره ، فلأبحث فيه ما قد يسقطه ميتاً . سلطاننا نفسه لا يملك أن يفعل مثلما أفعل . هل يستطيع أن يقول ما أقول لأى من المحابيس فى السلطنة ؟ همس الفلاح العجوز ، والله يا أمير ما عملنا شيئاً .. ضربه سجان كبير على وجهه ونزل الصمت فوق الجميع كالمصيبة .

وكان القمر يتسحب على حائط السماء مخنوقاً مبتور الوجه ، اقتربت من الشاب عريض الكتفين . طبعاً أنت لا تعرف كل ما عندنا من ألوان العذاب ، والويل لك لو أشار واحد من أصحابك عليك وقال إنك تحوز مبلغاً من المال حتى لو عشرة دنانير ... تكلب وتخوزق وتعصر أطرافك وأصداغك وتخلع أسنانك وتدق فى فروة رأسك أو نخلع أبزازك ونشويها ونطعمها لك . لاحظت أن ثبات عينيه قد اهتز ، وشفتيه ترتجفان ... قربت وجهى من وجهه كاد أنفى أن يلامس أنفه ، وفجأة زعقت عليه زعقة عظيمة فتراجع إلى الوراء متعثراً ، فانطلقت ألكمه فى صدره لكماً هيناً طرياً لكنى أعرف تماماً ما يحدثه من أثر . وصحت منبهاً إياه وإياهم أنه لن يرى أمه أبداً .. أبداً ..

ولن يسمع نداء زوجته إذ يرجع من الغيط . وفى الجب سينسى ملامح أولاده وأسماءهم .. قلت لهم كلهم وأنا أعتدل فى وقفتى .. لن تعثر شهامة لكم على أثر .

صحت على سجان كبير فرفع عصاه . وتدافعوا فوق السلم الحلزونى الضيق وهم يعولون كالنساء .. وكلما أوغلوا فى البعد إلى أسفل .. ماتت صرخاتهم . وفى الطيقان السفلى سيحاول رجال ربما مضى عليهم ستون أو سبعون سنة أن يعرفوا القادمين من العالم الذى باتوا يجهلونه ، ذات ليلة عندما نزلت بنفسى لأضع الأمير أقباى الطويل فى المحبس . سمعت رجلاً يزعق من مكان مظلم مررنا به يسأل عما إذا كان يوجد عالم حقيقة أم لا . وآخر يسأل عن أحوال الناس ومن أى حى جاء القادم الجديد .... وتتلاحق الأصوات حتى كاد أقباى الطويل أن يموت رعباً على نفسه .. لكنه لم يمت . استندت على السور الحجر بذراعى ورأيت المدينة عليها خمدة .. وكانت الليلة وسط بين الخريف والشتاء . وعما قليل تجىء الأمطار وتهطل حتى توحل الأسواق وتمسى المقشرة مكاناً مهولاً مفزعاً . تنبهت إلى أننى لم أصل العشاء فاستغفرت ربى . ومشيت إلى غرفتى . لحقنى سجان كبير وأخبرنى أن السلطان سيأمر بعرض هؤلاء المحبوس ربما بعد أسبوعين أو ثلاثة . لم أرد وطلبت منه سجادة الصلاة .

* * *

درة

قال ابن سيدة ..

السجن هو الحبس . والسجان هو صاحب السجن . ورجل سجين يعنى مسجون .. وقال رحمه الله أيضاً وحبسه يحبسه حبساً فهو محبوس وحبيس واحتبسه وحبسه يعنى أمسكه عن وجهه ومنع حركته وخنق جولاته وروحاته .

* * *

رب يسر وأعن

من ليالى أوقفنى الشيخ مسعود عند حارتى بعد أن تركت بيتى قال ألا تخاف الله يوم القيامة ، قلت أستعيذ به وإليه الجأ ، هل رأيتنى فاسقاً أو مقصراً فى الفريضة أو أبلغك عن الزعر أنى جلفت فى حق ربى ، لا والله يا شيخ مسعود ، قال لا هذا ولا ذاك ، لكنى أسمع أنك تذيق المحابيس صنوفاً من العذاب وأنك تجمع الكثيرين فى موضع يضيق عنهم غير متمكنين من الوضوء والصلاة وقد يرى بعضهم عورة الآخر ، قلت كل عمل وله سوءاته وميزاته يا سيدنا ، واعلم أن كل ما يبلغك كذب من أوله إلى آخره ، قال لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، طلبت منه أن يدعو لى بالمغفرة ، قال اللهم احجب عنا بلاءك وشرك فمضيت وبنفسى منه ، كأنه يظننى آمراً لبرج القلعة والخزانة شمائل وسجن الديلم أيضاً والعرقانة ، وما ذنبى أنا ..؟ هل أنا الذى ابتدعت الحبوس ! أليس أمير المؤمنين وثانى الخلفاء هو الذى ابتدع الحبس فى الإسلام ؟؟ وابتاع داراً فى مكة يضع فيها ما يرى أنه يستحق أن يوضع ويوثق ، والله ليس غريباً أن تجىء إلى المقشرة يوماً ما يا شيخ مسعود ... عندما أمشى فى السوق والناس حولى يتدافعون فى اتجاه سوق الليمون . وباعة يصيحون ، وغلمان يعدون .. نهاية النهار وبداية الليل .. تزيد الحركة ويكثر البيع والشراء وفجأة يحل الهدوء والسكون .. كأن العالم مات عندما أمر فى هذا الطريق يثور بى خاطر .. لابد أن جميع هؤلاء سيجيئون إلى المقشرة ويصبحون تحت إمرتى ... ليسوا مرة واحدة . لكن كل منهم له دور .. كل عليه علة لابد أن يقضيها أو يقضى .. طلعت إلى حجرتى وأنا من الضيق فى أمر عظيم .. طلبت إحضار الأمير مغلباى الذى خامر على السلطان وركب جامع السلطان حسن وحاول أن يتعبث بعرش السلطان ويسطو عليه .. كان داهية .. لا يجرؤ علوك أو واحد من أولاد الناس أو العوام أن يعترض سبيله .. والله لأفعلن به وأجمله .

(... هنا أصاب الورقة تلف جعل الأحداث تتوقف ، غير أن ما يلى هذا لا يبعد الأحداث كثيراً عن سياقها الطبيعى) .

.. ولا أدرى إلى أين ؟ وهممت أن أستل سيفى وأطيح برأس كل من يقابلنى . غير أن المصيبة عظمى فهدأت روحى . الأمر لا بد أن يدبر فى هدوء .. لو شاع وافتضح لاهتزت رأسى .. أى أيام سوداء فى انتظارى ؟ كل سيوز السلطان على بكلمة . أما أتابك العسكر نفسه فسوف يركبنى فوق بغل بالمقلوب ويجرسنى فى القاهرة كلها .. إرجموه ، إضربوه ، علب ولدى ، قتل رجل قطع ذراعى ، خوزقنى ، أدخل خنجره المحمى فى .. وماتى ثلاثين عاماً كاملة لأنه طمع فى امرأتى فحبسنى ليخلو له الجو وينالها .. الفاسق .. الزانى يا رب اللطف . يارب أعن .. يلطمنى السوقة والعامة .. ويصيح المنادى أمام الركب .. هذا جزاء من لا يتحفظ على حبوس السلطنة وأى حبوس هربت يا خراب ديارى أربعون فلاحاً لو قتل منهم فى الطريق لما ارتفع أصبع ولا اهتزت شفة ، جمعت السجانة ، طحت فيهم ضرباً ووكلاً ورأيت أبدانهم تكاد أن تنخلع لهول رعبهم ، صرخت عليهم أتعرفون أى هول ينتظركم ؟ أنتم أدرى الناس بالمقشرة ، ستغدو مكاناً بعيد المنال منكم ، غير أنى بعد وقت جمعتهم ، لو افتضح الأمر لو ذاع الخبر ، لقتلتكم أجمعين ، وعقدت يدى أمام صدرى وتمنيت من الله ألا يرسل السلطان فى طلب العربان المفسدين ليعرضهم ، وخرجت إلى الطريق طائشاً على وجهى ، وفى قلبى جمرة نار ، أقبل رجال يرفعون بيارق حمراء ويدقون الطبول ، يتقدمهم رجل حول وسطه قماش أحمر يدور حوله بسرعة كبيرة ، والرجل يلف ولا يدوخ ولا يقع ، وكانوا يزعقون فى حماس .. الله .. الله .. تمهلت حتى مروا وكان المغيب يقترب ، وعما قليل ينزل الليل فجأة ، هب الهواء بارداً حتى وخز عظامى ، توقفت حائراً والطريق تزداد به الحركة وتعلو ، تذكرت عيالى وامرأتى فى البيت ، تمنيت أن أمتطى جواداً يمضى بى ولا يتوقف لكنهم سيدركونى ، حرت فيما أفعل ، وصحت بنفسى .. الثبات .. الثبات .. نزلت ثلاث درجات تؤدى إلى جامع قديم منخفض ، وكان الهواء مقبضاً وقفت خاشعاً وتذكرت عددهم .. أربعون فلاحاً .. والأمر لله .

• • •

سبحانك أنى تبت إليك وأنا أول المؤمنين .. اللهم أعف عنا واغفر لنا ، اللهم لا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم المارقين أرجو رحمتك بقولك — إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين — ذنوبنا كثيرة ، وطاعتنا يسيرة ، كلنا تحت الزلة والتقصير ، يارب لولا ذنب المذنب لما ظهرت صفة عفو الكريم ، ولولا تقصير المقصر لما بان غفران وحلم الحليم ، اللهم أنى أعوذ وأستجير بحبيبك الذى نزل فى حقه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ..

• • •

رب يسر وأعن ..

سألت سجاناً كبيراً ، هل راكم الأهالى ؟ هل زعق عليكم المماليك ؟ فقال لا صغير ولا كبير أحس بنا ، فالمماليك لا ينزلون من القلعة بعد المغيب ، وحرك الوالى لا يجولون فى الطرقات إلا بعد توغل الليل .. ثم من نحن ؟ ألسنا جند السلطان ! إسم كل منا يعرفه أهالى البلدة أجمعون .. وفوقنا تجمعت غيوم ثقيلة نامت بحملها السماء ومالت حتى تكاد أن تلامس البيوت .. زعق أوطم عندما طالعنى .. ماذا فعلت يا أمير ؟ صفعته بالسوط على وجهه .. وحدقت فى الورم المستطيل الأحمر القانى الذى انتفخ مكان الضربة .. صرخ أحدهم كالنساء .. يا خراب بيتى وعيالى وقال آخرون إنهم ما جنوا شيئاً يؤاخذون عليه وأن واحداً منهم لم يغش مخلوقاً ولم يشوش على إنسان .. وقال بعضهم إنهم أكثر أهل مصر طاعة لكل ما قيل وما سيقال .. فماذا فعلناه حتى تحطوا علينا فجأة ونحن نبيع الليمون فى السوق وتأخذوا جمالنا وأحمالنا وتشكونا فى القيد الحديد ؟ قالوا إنهم غلابة ؟ وإن أهاليهم سيموتون حزناً عليهم ، لأنهم راحوا مصر ولم يعودوا ، أنا لى عشرة أولاد يا سيدنا ، أما أنا فقد وضعت حياتى فى قفة الليمون التى حملتها فوق عنقى لأبيعها فى السوق ، رحت أصغى إلى ما يقولونه ، وثمة برد وسلام ينزل على قلبى ، لم أتكلم ، الفلاحون الذى أتى بهم الداودار لم يكونوا كهؤلاء فى الزعيق والصراخ اللين لكن هذا بطبيعة الحال ، الآخرون جاءوا من قراهم مباشرة ، أما أولئك فما أغرب حالهم ، رجل يخرج من بلدته ولا يرجع ، ولن تعرف امرأته ولا عياله ما جرى له ،

وبعد أيام يطلب السلطان عرض العربان المفسدين المتعبثين فى الأرض اللذين أسرهم الأمير الكبير ، فتضرب أعناق البعض ويوسط الآخرون وتتدلى أجسامهم المزيلة من باب زويلة وباب الشعرية ، وقد يتن الواحد منهم فيجيف لحمه ولا يجد من يدفنه حتى يتصدق عليه مؤمن فيدفنه ، ولن تستطيع فى ذلك شاتان ، ويروح كل منهم على أمره ويخلو مكانه وينتهى خبره ، قلت لهم وكلهم مصغون كأن الصور قد نفخ فيه النفخة الأولى فخربت الأرض جميعها . . أنتم من العربان المفسدين ومهما زعمتم وقلتم غير هذا فأنتم تقطعون الطرق وتهاجمون ركب الحج ، ستقولون نحن تجار ليمون ، تزرعه وتبيعه ، لكن لن يسمعكم أحد ، رحت أدور حولهم أتأمل جحوظ عيونهم وملامحهم المرتعبة والرجاء المخلوط باليأس فوق الوجوه ، عجباً أهذه الرؤوس كلها ستحشى بالقش بعد قليل ، ارتعش جلدى وطاف بدماغى خاطر طردته بعيداً واستعذت من الشيطان الرجيم ، الغيوم الثقال حبلى بالمطر وعما قليل ينزل السيل كالبحار ، صرخاتهم تطلع إلى الفضاء الوسيع حتى لو سمعتهم الدنيا كلها فمن يسأل أمر المقشرة ؟ تراجعت إلى الوراء خطوة وزعقت على سجان كبير أن يرميهم فى الطباق الأوسط وأن يربط كلا منهم إلى الجدار بثلاثة مرابط حديد ، قبل أن ينزل إليهم سألته كم عددهم ؟ فقال إثنان وأربعون ، قلت له وكم كان أسرى الأمير ، قال أربعون ، أطرقت مقدار درجة وقلت له إرسل إلى إثنين ، خلعت خنجرى من جرابه وبرق نصله فى الهواء .

• • •

هكذا تنتهى أوراق المخطوط فجأة وأكاد أكون متيقناً أن هناك أجزاء مفقودة منه ، كل ما أرجوه ألا تكون يد الفناء قد امتدت إليها فأتت عليها . لذا أرجو من هواة ودارسى المخطوطات القديمة إذا ما عثروا على الأجزاء المكملة لتلك الأحداث الغريبة أن يتكرموا بإرسالها إلى . . حتى أنشرها ويمكن الاستفادة منها .

• • •

كشف اللثام
عن أخبار ابن سلام

يارب يا ساتر المؤمن من العيوب . . يا كاشف الغيوب . . يا من ارشدت قوماً من دون الخلق إليك . ثم وفقتهم للاعتياد فى كل أمر عليك . . اللهم صل وسلم على نبيك سيد البشر . . كاشف الحقيقة وحامى الصدق العائم فوق البحور الغريقة . . وبعد ، أعلم أنى سطرت هذه السطور . . لا لشيء إلا ابتغاء مرضاة ربى . وكشفاً لحقيقة انسان عرفت أخباره عن قرب . قاسى ما لم يقاسه الأولون . . وذاق مراً وهجاجاً لم يذقه الآخرون . وفى أيامنا تضاربت حوله التواريخ . فثمة من ينسب إليه سوى الفعال . وآخر يحمل سيرته بما لم يجر ولم يحدث وزعم آخرون أنه وهم لم يوجد . ومن يعلم ؟ ربما جاء فى قادم العصور من يرغب فى معرفة طرف من أخباره . فيكون حديثى هذا هادياً ومرشداً .

• • •

ذكر أصله ونسبه .

هو الفقير إلى ربه ، يوسف بن إبراهيم بن سلام ، لا يعرف أبعد من جده الثالث ، وإذا سألته لأجاب ، أنا يوسف أبى إبراهيم وجدى سلام ، وكنيتى

ابن سلام ، فلا تتادى إلا بهذا ، كما أنه لم يقل لأحد متى ولد بالضبط ولا أين ، يقول إنه سمع أمه تقرن تاريخ مولده بمجيء الوباء العظيم الذى مات فيه أبوه ، غير أنه كان يطرق ثم يقول ، لكن أى السنين لم تخل من الوباء ، وأشاع عساكر العثمانية بين العامة أنه غريب عن بر مصر ، قالوا إنه يطمع فى ثروات الجراكسة ، بل أن السبب فى مروره بالطرقات متوقفاً بين لحظة وأخرى زاعقاً بأعلى صوته عما جرى فى النهار من جند ابن عثمان . إنه كان يقيم فى عشة قديمة على باب حارة درب الرصاص وعندما شرع العسكر لإزالة أبواب الحارات قوضوا عشته . ابن سلام بلا مأوى فسخط وطفش فى الطرقات . ويكررون أنه ليس من أهل مصر . وإلا فأين كان وقت خروج التجاريد ؟ وإلا فأين كان وقت أن علق طومانباى على باب زويلة . وإلا فليقل للعوام اللذين يمشون دائماً وراءه ، يرددون ما يقوله . يحيطون به إذ ينام . لماذا لم يمت إذا كان يبكى ما جرى ! لا يا قوم . لا تصدقوه فهو دجال .

• • •

حاشية .

أخبرنى من أثق به : أن بعض السوقة دفعوا عنه خطر العثمانية عندما حاولوا خطفه . وراح ابن سلام يطلق صوته الغريب الذى لا هو زعيق ولا صراخ ولا حتى بين بين ، تراجعوا من حوله وابتعدوا فى كبكبة الزرد والسلاح لا يجرؤون على الاقتراب منه ، وأطلق العامة صيحات التكبير والتهليل .

• • •

فصل فيما جرى له عند دخول العثمانية .

. . . عندما ثارت فتنة بن عثمان . وجاءت الرسل من الشام بما جرى . لم يعد الرجال يغلقون أبوابهم فى حارة درب الرصاص . كما أن ابن سلام لم يعد يغلق بوابتها بعد المغيب . كل من أهل الحارة أمام بيته . يخمنون ما يجرى . فالأخبار مقطوعة . والقول الذى يبدو مؤكداً . الصباح يصير مكذباً ، فى

المساء . كل هذا والناس فى كرشة عظيمة . وابن سلام لا يأوى إلى عشته أبداً . وفى هذه الليلة التى جاء فيها رجل نفذ بجلده من الشرقية وراح يحكى ما جرى ، إقترب منه ابن سلام وبدا أن ظهره المرم قد ازداد انحناء . . ابن عثمان يعطى الأمان ويدخل بلبيس . . رجاله يطيحون السيف فى أهلها حتى قيل أنه قتل فوق العشرة الآف إنسان من عربان وجند وفلاحين صارت جثثهم مرمية فى الطرقات . أما الأحياء منهم فخطفهم العثمانية وباعوهم بأبخس الأثمان حتى إن البكر التى لم تفتض بيعت بثلاثة دراهم . هنا زعق ابن سلام متسائلاً عن الثمن الذى بيعت به البكر ؟ ثم سأل عن عدد القتلى . وأضاف الرجل أن سائر البلاد التى مر بها ابن عثمان كادت تخلو من سكانها حتى إنك لتدخل القرية وتنادى فلا يصادفك إنسان . تحسر الرجال . واستعاذ ابن سلام بربه . . سمعه الرجال يقول : والله لم يجر هذا لمصر من قديم الزمان . إلا زمن البختنصر البابلى . أصغوا وكأن عليهم الطيرة ، ماذا يقول عجوز الحارة ؟ ومن هو البختنصر البابلى ؟ لم يكرر قوله ، راحت أسئلة الناس كحجارة رموها فى بئر بلا قرار . بل أدركوا أنها المرة الأولى التى يسمعون فيها العجوز . طوال سنين لم يفارق عشته . لم يدخل بيتاً ولم يعبر حتى أسوار المدينة . . . منذ هذه الليلة لاحظوا أنه يخرج كل نهار . رؤى فى أطراف القاهرة وعند صحراء الرميلة . وقال آخرون والله أعلم أنهم شاهدوه فى ميدان الريدانية . بل إن هناك من أقسم أنه رآه عند سبيل علان ، يسقى الجند ويحمل معهم الأتربة . . وفى اليوم السابق لدخول الخنكار مدينة القاهرة رجع إلى عشته مغموراً مقهوراً ممزق الثياب . بارز العظام . . حتى ظن من رآه أن الصغار رموه بالحجارة . أما الحارة فنزل فوقها الخراب . وزع الأغنياء من أهلها ذهبهم وفضتهم وقماشهم على الأماكن المجهولة . ولجأ من يخاف على نفسه وعلى حريمه وعياله إلى المزارات البعيدة وفساقى الموتى . وإن لم ينفع هذا فيما بعد . ويبدو لمن تبقوا أنهم يرون ابن سلام لأول مرة فى حياتهم . . عيناه اللتان دبت فيهما الحياة زعيقه فى جوف الليل . يارب : وتنبهوا إلى أنه لا ينام أبداً . حتى حاروا فيما جرى له وما أصبح عليه . وفى الصباح سألوا عنه . وجدوا عشته خاوية . تذكر البعض أنهم رأوه يصلى الفجر فى المسجد القريب . وطلع النهار وزادت

الرِجْل فى الطرقات . وفجأة علا صراخ الموقعة . وكانت الكبكبة . وهول النزال والقتل والطعان . ورجفة الأرض إذ تنطلق المكاحل الكبار بالبارود . وانعقد الغبار سحابات قتيمة فى سماء المدينة . وبدت البيوت يتيمة . والدكاكين مرعوشة تتلاشى . . الأمان . . الأمان . . والحوارى كالمساكين فى المجاعة . كل هذا والشتاء يعمل عمله . ونظر الأهالى من خلف الطيقان المغلقة . والعصر يرمى فى الشوارع وحشة وخنقة . وأغرق النفوس ألم وغلة . ها هم جند الخنكار يطلقون البندق الرصاص فى الهواء . يصرخون كالبهائم . . همج بلا نظام . ها هم يتوقفون يلجون البيوت حجتهم البحث عن المماليك الجراكسة . وعلا صراخ الحريم وآلام العيال واستمر النهب والقتل عمالاً حتى بعد مجىء الغروب والشمس ليس لها من أثر . . والمنادين فى الطرقات ، إدعوا بالنصر للخنكار سليم بن عثمان . لا يخفىء أحد منكم جركسياً وإلا . . ومن ناحية سبيل علان . . وفوق قناطر السباع . خيل للناس أنهم يسمعون صوتاً يقول كلاماً آخر . عجوز عنى الظهر . يبدو فى حرة المغيب . . يتكىء على فرع شجرة ، يمشى بسرعة كأنه يجرى ، هزيل لا يبين « راح الصالح بالطالح ولعب السيف فى رقاب الأبرياء . . طرش العثمانية من أهل مصر فى يوم واحد ألف ألف ألف إنسان . . الجثث مرمية تنهشها الغربان . . لا تجد من يدفنها . . أبدان بلا رؤوس ورؤوس بلا أبدان . . يا حى يا قيوم يا من لك الدوام راح الصالح بالطالح . . » قيل إن الصوت سمع فى الباطنية . بل أن أهالى الجوانية استطاعوا تفسير ما قاله الصوت . ولأى مسافة تفصل المكانين عن بعضها وحاروا فيمن يكون ومن يجرؤ على التجوال والزعيق وسط هذا الضجيج والعجيج قالوا إنه مجلوب . . وقيل انه رجل قتل ولده فى الموقعة وذكر آخرون أنه إنسان فاض به الحزن لهول ما رأى . وأقسم ثلاثة ممن كانوا يختبئون فى فساقى الموتى قرب ضريح الإمام الشافعى . . . ما هو إلا عجوز معروف لأهالى قصر الشوق عامة وساكنى درب الرصاص خاصة . . إنه معروف لدينا من صغرنا نراه . الشيخ العابد الزاهد ابن سلام . . وأكد شاب أنه اصطدم به أثناء جريه فزعاً . انتابت جسمه عندئذ رعشة . وأقسم بتربة أبيه أنه رأى فم ابن سلام خالياً تماماً من الأسنان . فراغ

مظلم يقطر دماً غير أن أهالى الدرب كذبوا ما سمعوه ، صحيح ابن سلام عجوز لكن أسنانه سليمة . وقال آخرون إن فمه لم يكن به أسنان ، غير أنهم تعجبوا كيف يتناقشون والموت يمشى على أقدامه فى الطرقات لا يأمن أحد على روحه ، الحرائق تشتعل فى عدة أماكن ، غير أنهم فجأة سمعوا صوتاً واضحاً أثار الرعشة فى قلوبهم ، أخلعهم حتى كادوا يبكون ، لا عجب فالناس فى أسى وهم عظيم وجرحهم طرى مفتوح لا يزال ينزف . . الصوت متوحش وغريب ، ضاع الأمان . . وراح من راح . هتكوا عرض عشر نساء فى جامع المؤيد ، وقتلوا بائع خيار عند باب النصر ، أكلوا خياره . . . القتل والنهب عمال . . راح من راح . . أطلوا من الطيقان التى غلقت من وقت بعيد . صاحب الصوت مضى . سمع من يردد ما قاله . . سألوا بعضهم فأكد رجل رأى المنادى بعينيه . . هو بعينيه ، زاهدنا وفقيرنا . . !

• • •

ذكر أخبار شعره:

اعلم غفر الله لك أن ابن سلام لم يقرض الشعر طوال عمره أو هكذا قيل حتى وقعت الشدة العظمى . وحدثت الكارثة . وعمت القارعة . وصال جند ابن عثمان وجالوا وهاشوا على ناس مصر . وما راعوا لجوامعها ولا لزرعها ولا لنسائها حرمة . . . ونهبوا دكاكينها وقصورها وما أبقوا إلا الجدران ، يذكر الناس . إن ابن سلام بدأ عندئذ يقول الشعر ، وقد أشاع العثمانية أن الجراكسة كانوا ينظمون له هذا الشعر ليقوله فى الطرقات . . لكن أخبرنى من أثق به من أن ابن سلام هو الذى قرض كل ما قاله من شعر . . ثم إن شعره الذى أبكى الناس وأجرى الدمع أنهاراً من العيون ، لم يتبق منه شىء ، ولو كان واحد من الخلق كتبه له لبقى منه بعض ما كنا نود أن نورده هنا . يقول القاضى بدر الدين بن زيتون – نفعنا الله به آمين – إن إلقاء ابن سلام لإحدى قصائده استغرق مرة وقتاً ينحصر بين آذان العصر ونزول صفرة المغيب . وهذا من غرائب الزمان .

• • •

فصل فيما كان يفعله ويقوله :

افترش ابن سلام الطريق الكبير القريب من السوق . يحيط به من اعتادوا المشى وراءه ، وتساءل التجار والناس والعيال عما ينويه ابن سلام ، وفوق البيوت تجمعت الغيوم الثقال . . . ولا عجب فقد أمطرت السماء طوال ثلاثة أيام . ولم يكف الرعد فى الليل أو النهار كذا البرق ، حتى أوحلت الأرض وصار المشى صعباً ، ويقسم من كانوا على مقربة من ابن سلام أنه لم يرتجف من البرد أبداً ، كما أن ثيابه لم تبللها نقطة ماء . وفجأة وقبل الظهيرة ، علا دق الكوسات والطبلخانات وزعق النفير من بعيد ، وبدا من نهاية الطريق متولى حسبة القاهرة قادماً من ناحية الرميلة حيث القلعة ، يمشى أمامه السعاة ، له هيبة ومهابة تكاد تحاكى هيبة الملوك ، قام ابن سلام زاعقاً . . متوسطاً الطريق يا حى يا قيوم وتردد الجميع مقدار درجة فى الاحاطة به ، غير أنهم قد أحاطوا به ، وأطل الأهل من الطيقان ، وبطل النداء على سائر أنواع البضاعة ، كفت الطبول ، سكتت الكوسات . . زعق ابن سلام زعقة عظيمة ، أقول وقد عاينت ذلك بنفسى ، إن قلب الواقف على بعد ألف متر منه لابد أنه ارتجف هولا ورهبة ، تقدم من حصان المحتسب ، أنزل يا زينى من فوق سرجك وكلمنى ، وعلى مهل نزل الزينى يتعثر فى قفطانه الحرير وجبته ، صاح عليه ابن سلام ، ظلمت العباد وفرضت من الضرائب ما لا يطيقون ، شردت العيال ، وزدت عدد الأرامل وفى هذه اللحظة تصايح الواقفون وراء بن سلام ، ومعظمهم فلاحون جاءوا من أقاصى البلاد بعد أن سمعوا به ، والآخرون حاقت بهم المصائب فلزموا جانبه ، وأطرق الزينى برأسه ، يا زينى ألم تكن أنت الرجل المقرب عند السلطان الشهيد قنصوة الغورى ! وكنت تقبل يده وطرف جبته فى اليوم مرات ! ما الذى جرى يا عالم ! ما الذى فعلته ! وقمت به حتى نراك اليوم الحبيب المقرب لابن عثمان ؟ ألم تدعو أنت على الخنكار قبل خروج الغورى إلى الشام ؟ ألم تشرف على جمع النقود والضرائب ؟ ويا ليتك اليوم نصيراً لأهلك عند العثمانية . ها أنت مستمر فى فرض المكوس وتريئا من المظالم أنواعاً وأنواعا . قيل أن الزينى صار يتلفت حوله مذعوراً . . انتابته رجفة .

ربما سمع الكلام من ينقله فى الحال إلى ملك الأمراء ، يا خراب دياره . . لن يمضى المغرب إلا ويشك فى الزناجير ويمتم اليوم التالى . يشك من ضلوعه كالباذنجان . . كل هذا وابن سلام لا يكف ولا يهدأ . . أنت كنت معهم عندما هجموا أمس على سكان الجزيرة الوسطى ، ففتشوا فى بيوتهم وزعموا غشهم فى الطرقات وضربوهم حتى انقطع حسهم . كل هذا وأنت معهم . لا تقول إسكتوا ولا ترفع عنهم الأذى ، كل هؤلاء شاهدوك وسمعوك واستغاثوا بك ، لكنك لم تأبه لهم وبهم يا كافر . . يا عدو الله . انتفرت عروقه . . وكاد الدم يخرج من عينيه . . أما الناس خلفه فصاروا يصرخون ويستغيثون ، وفجأة مد ابن سلام يده وجذب الزينى بركات ابن موسى من لحيته ، وخلع عمامته ، ورماها فى الوحل ، وبهدله آخر بهدلة ، وهذا لم يتفق فى قديم الزمان أو حديثه أن ناسكاً أو غير ناسك مرمغ هيبة رجل ذى سطوة وجبروت خاصة كالزينى بركات ابن موسى ، فقد ظل نجمه يلمع وسعده يطلع فى زمن الغورى وزمن الخنكار ، مما حير العقول وأربك الألباب ، وقيل أن الزينى وعد ابن سلام أن يكلم ملك الأمراء فى أمر هذا الخراب ، غير ان ابن سلام لم يصغ إليه ، وتزايد عدد العامة فجأة حتى أنك لو نثرت ذرات الملح فوقهم لما نفذت ذرة واحدة ، وأرعدت السماء فجأة رعداً مهولا حتى وجفت قلوب الناس بما فيهم عسكر العثمانية الذين تجمعوا عن قرب ، وتهامس العامة وسائر أهل مصر ، أن البارى عز وجل غاضب على ما نزل بعباده ، انتابت القلوب رجفة ورهبة ، ورفع ابن سلام عصاه ممسكاً بها من منتصفها . زعق نائحاً على من مات . معدداً من رآهم قتلوا منذ دخول العثمانية ، راثياً أهل مصر الذين انتزعوهم من وسط عيالهم وأرسلوهم إلى بلاد الخنكار ، حتى حدائق الفرجة التى حربت ، وليوانات الجوامع الجميلة التى نهبت عواميدها وأحجارها . وعندما استرسل كاد القوم يشقون ثيابهم ، كبروا وهللوا ، وانطلقت فيهم جمرة نار مهولة تقيد ولا تنطفىء . مسكوا الزينى ورجاله بالمقارع وبرغم زيادة الهول وشدة الضجيج ، فقد سمع جميع أهل المدينة صوت ابن سلام نقياً كالزئبق ، صافياً كالبللور برغم تقدم العمر ، وزيادة الهم ، وشدة الضيق ، والكرب .

ذكر أخباره الأخيرة وكيف انتهى أمره:

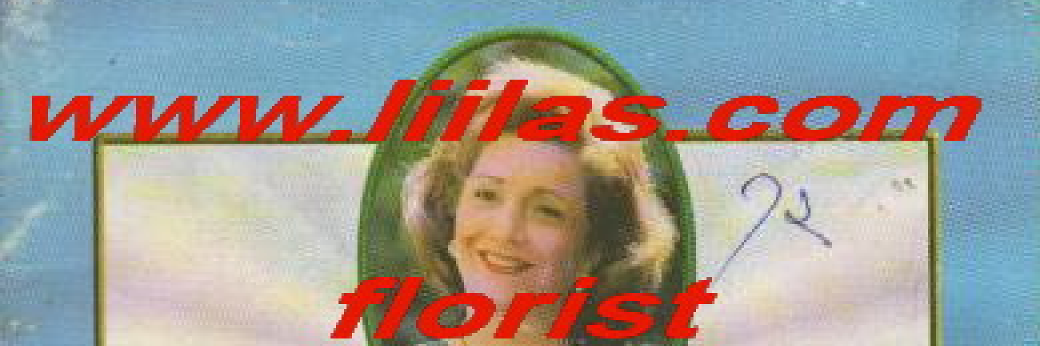
طاف المشاعلية ثلاثة أيام . راكبين وراجلين . ينادون : بأن الكاذب اللئيم مدعى الزهد والعبادة ، سوف تدق رأسه بالطبر عند باب زويلة ظهر يوم الجمعة ، ولمدة أيام ثلاثة علا النواح من البيوت . وبرغم أن الوالى قد حرم النعى بالدق على الطارات ، غير أن النساء تحت ستار الليل رحن يقمن ويضربن على الطارات حتى الفجر ، لدرجة أن المدينة يأخذها الهول حتى ليشيب من حالتها الرضيع . ولم يجرؤ دركى واحد أن يأمر بالنهى عن هذا ، وقيل أن الجنود الذين أمسكوا ابن سلام وضربوه ، قد انتابهم النَدم ، لأن النساك لا يقربون ، فرموا أنفسهم من فوق سور القلعة ، وراح خفاف العقول من العامة يقولون إن ابن سلام هارب هائم على وجهه فى الجبال . وأن الله سبحانه وتعالى سيمده بجند من عنده ، وأنهم لم يمسكوه هو بعينه . لكن جاء ظهر الجمعة حيث خلت الجوامع من مصليها ، وخرجت النساء حاسرات ، أما نوافذ جامع المؤيد شيخ ، فقد تعلق الخلق بها ليرقبوا البوابة الكئيبة وما يجرى عندها ، وعند ظهور الحمار المربوط إليه العجوز ، سرت همهمة بين الجمع وخرست فجأة ، النسوة لم يطلقن زفيراً مرتفعاً ، ونزل الخراب والموت حتى لتحسه فوق البيوت ، وتكاد تخال مئذنتى المؤيد فوق زويلة تميلان حزناً وقهراً ، وخلف ابن سلام سحبوا جمعاً يبلغ العشرين ، قيل إنهم الذين نهبت بيوتهم فى الجزيرة الوسطى ، وشكوا إلى ابن سلام حالهم ، وكان ما كان . . . طلع ابن سلام فوق المصطبة . رأسه محلوق تماما ، جسمه عار إلا من زنط قديم يحيط نصفه الأسفل ، جال بعينيه فى الجمع الذى احتشد وسكن . صاح فجأة . اقرأوا الفاتحة ، اهتزت الشفاه وترقرق الدمع خلف المآقى ، وقيل إنه التفت إلى المشاعل وقال : اعمل شغلك . وجلس القرفصاء ، بينما رفع المشاعل الطبر الثقيل وأهوى به فوق عظام الرأس الذى انخسف وبدا كومة غريبة فى حجم قبضة اليد فوق الرقبة . انتفض الجسم إلى أعلى وقيل ظل واقفاً مقدار درجات وبسرعة هوى الطبر مرة ثانية . وزعق الواقفون جميعا زعقة

هائلة . وكثر التحسر والأسى ، وقيل إن أحجار البوابة رمت دماً ولاتزال ، وعاطت النساء عياطاً مهولاً ، ارتجت له القاهرة ، وظل جسده معلقاً فوق بوابة زويلة ثلاثة أيام .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٧٣٦ / ١٩٩٨

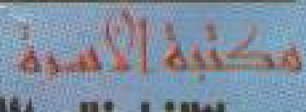
I.S.B.N 977 - 01 - 5775 - 9



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث. ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى لترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة. مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك





مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب